

أهم القضايا الفكرية لدى الجماعات التكفيرية دراسة نقدية

د كتور

عمـرو سعـيد فتوح درويــش

المدرس بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية –جامعة الأزهر– مصر

amrodarweesh.adv@azhar.edu.eg

الملخص:

يهتم هذا البحث بإماطة اللثام عن أهم القضايا الفكرية لدى الجماعات التكفيرية حيث كانت البداية مع قضية الحاكمية والتي تعد الأصل الأصيل والركن الركين لديهم ومن هذا المنطلق قمت بتحرير المصطلح وتتبعت بواكير ظهوره، وبيان حقيقته لدى الجماعات التكفيرية؛ ووضعه في ميزان الشريعة الإسلامية، بعد ذلك قمت بالكشف عن القضية الثانية والأخطر والتي تمثلت في أحكام التكفير التي أطلقوها بلا ضابط ولا رابط، الأمر الذي دفعهم بالضرورة إلى الإيمان بعقيدة الولاء والبراء وهي القضية الثالثة حيث أظهرت جانبا من معالمها وأبعادها لدى الجماعات التكفيرية إذ أعلنوا الولاء لجماعتهم وحدها والبراء من كل ما سواها، بعد ذلك أسقطت الأضواء على جانب من الممارسات الوحشية التي ارتكبوها بحق مخالفيهم والتي سموها بالجهاد ويتضح ذلك جليا في القضية الرابعة، وأخيرا كانت الهجرة إلى الدولة الإسلامية الناشئة حسب زعمهم حيث القضية الخامسة والأخيرة من القضايا الفكرية لدى الجماعات التكفيرية، إلى جانب ذلك كنت حريصا في كل مبحث على إماطة اللثام عن المغالطات العقلية والمنطقية من واقع نصوصهم فضلا عن بيان موقف الإسلام من تلك الترهات ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة.

الكلمات المفتاحية: القضايا الفكرية، الجماعات التكفيرية، الحاكمية، التكفير، الولاء والبراء، الجهاد، الهجرة.

Abstract: I began this research by unveiling the first intellectual origin of the Takfiri groups, which was represented in the doctrine of governance, where I edited the term and traced its early appearance, and revealed its truth among the Takfiri groups; And he placed it in the balance of Islamic law, after that I proceeded to explain the second and most dangerous principle, which was represented in the rulings of atonement that they issued without any control or link, which necessarily led them to believe in the doctrine of loyalty and disavowal, which is the third principle they have, as they declared loyalty to their group alone and disavowal of everything else. After that, the spotlight was shed on some of the brutal practices they committed against their opponents, which they called jihad, which is their fourth origin. Revealing the rational and logical fallacies from the reality of their texts, as well as cla[rifying the position of Islam on these nonsense, so that the one who lives on the basis of evidence may live, and the one who perishes on the basis of evidence will perish.

Keywords: intellectual assets, takfiri groups, governance, atonement, loyalty and disavowal, jihad, immigration.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده؛ والصلاة والسلام على من لا نبي بعده؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله.

أما بعد:

فلعلي لا أفارق الحقيقة إذا قلت أن الجماعات التكفيرية في وقتنا الراهن باتت من أخطر التحديات التي تؤرق المجتمعات الإسلامية والعربية بل المجتمعات الدولية كلها، والحوادث الإرهابية التي تترا بين الفينة والأخرى خير شاهد ودليل.

من هذا المنطلق ألحت الضرورة إلى إماطة اللثام عن أهم القضايا الفكرية التي آمنت بها الجماعات التكفيرية، بداية من الحاكمية؛ التي ترتب عليها تكفير الموحدين في مشارق الأرض ومغاربها، مما دفعهم بعد ذلك إلى البراء من جميع المخالفين والولاء لجماعتهم وحدها! ولم ينته تطرفهم الفكري عند هذا الحد بل تعداه إلى إعلان الجهاد ضد جميع المخالفين عن بكرة أبيهم؛ فذبحوا الأبرياء! وحرقوا الأحياء! وانتهكوا أعراض الشرفاء! وبقروا بطون النساء! ثم كانت الدعوة الهزلية بالهجرة من ديار الكفر إلى دار الإسلام.

تلك الترهات دفعتني بالضرورة إلى البحث عن كل قضية من هذه القضايا الفكرية على حدة بدءا من تحرير المصطلح وبواكير ظهوره، مرورا بتسليط الأضواء على مظاهره وملامحه عند القائلين به، وانتهاء ببيان موقف الإسلام من تلك المعتقدات ووضعها في نصابها الصحيح، ولذا آثرت أن يكون هذا البحث بعنوان: (أهم القضايا الفكرية لدى الجماعات التكفيرية دراسة نقدية)

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١- تظهر أهمية هذا البحث من كونه يقوم بإبراز أهم القضايا الفكرية لدى الجماعات التكفيرية؛ والكشف عن سوءاتها بهذا الصدد؛ حيث الاختطاف الواضح الفاضح للنصوص الشرعية من سياقها؛ وتطويعها حسب أطماعهم السياسية، وأهوائهم الشيطانية، ورغباتهم الشهوانية.

٢- بيان التدابير الوقائية ضد مخاطر التطرف والإرهاب، وذلك في ضوء الآيات القرآنية، ونصوص السنة النبوية، وأقوال السادة الأئمة، ويتضح ذلك جليا فور عرض كل قضية من القضايا الفكرية للجماعات التكفيرية.

٣- الكشف عن الوجه القبيح للجماعات التكفيرية؛ وبيان عوارها وضلالها وهزلها وهرائها وكذبها وافترائها من خلال أصولها ومعتقداتها، ومن ثم الحيلولة دون انزلاق الشباب في براثن التطرف والإرهاب.

منهج الدراسة :-

سأعتمد في هذا البحث بمشيئة الله تعالي بشكل رئيس على المنهج التحليلي؛ وتتضح معالمه إبان عرض الأصول الفكرية التي آمنت بها الجماعات التكفيرية وتحليلها وبيان الآثار المترتبة عليها، هذا إلى جانب الاعتماد على المنهج النقدي؛ وتبرز أهميته في الرد على معتقدات الجماعات التكفيرية وإماطة اللثام عن بطلانها وضلالها.

الدراسات السابقة

هناك العديد من الدراسات التي تناولت هذا الموضوع من جوانب متباينة، أذكر منها:

١- شبهات التكفير عرض ونقد: للباحث عمر عبد العزيز أبي المجد حسن قريشى، رسالة ماجستير بجامعة الأزهر كلية أصول الدين بالقاهرة سنة ١٩٨٨م.

٢- ظاهرة التكفير وآثارها في الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر: للباحث خالد بن إبراهيم الإدريسي، رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود، سنة ١٤١٣ ﻫ.

٣- الجماعات التكفيرية وخطرها على الدعوة الإسلامية: للباحث شريف سعيد محروس ترك، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية، سنة ٢٠١٧م.

إلى غير ذلك من الأبحاث والرسائل العلمية التي أُنيطت بالبحث عن الجماعات التكفيرية، لكن مما يلاحظ على الدراسات السابقة؛ رغم أنها تناولت الموضوع من زوايا مختلفة؛ بيد أنها لم تتعرض للحديث المفصل عن الأصول الفكرية التي آمنت بها الجماعات التكفيرية، وهذا أهم ما يميز هذا البحث عن غيره.

خطة البحث

يتكون هذا البحث من مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: وتشتمل على أهمية الموضوع، ومنهج الدراسـة، والدراسات السابقة.

المبحث الأول: قضية الحاكمية ونقدها، وفيه ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: تحرير المصطلح وبواكير ظهوره.

المطلب الثاني: الحاكمية في عيون الجماعات التكفيرية.

المطلب الثالث: الحاكمية في ميزان الشريعة الإسلامية.

المبحث الثاني: قضية التكفير ونقدها، وفيه ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: تحرير المصطلح.

المطلب الثاني: مظاهر التكفير عند الجماعات المتطرفة.

المطلب الثالث: نقد التكفير وتصحيح المفهوم.

المبحث الثالث: قضية الولاء والبراء ونقدها، وفيه ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: التعريف بالولاء والبراء.

المطلب الثاني: مظاهر الولاء والبراء.

المطلب الثالث: الفهم الصحيح للولاء والبراء.

المبحث الرابع: قضية الجهاد ونقدها، وفيه ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: الدعوة إلى جهاد الطواغيت.

المطلب الثاني: الممارسات المتطرفة للجماعات التكفيرية.

المطلب الثالث: نقد الجهاد في المفهوم التكفيري وتصحيحه.

المبحث الخامس: قضية الهجرة ونقدها، وفيه ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: المفاهيم المغلوطة حول مصطلح الهجرة.

المطلب الثاني: الإغراءات الباعثة إلى الهجرة.

المطلب الثالث: نقد مفهوم الهجرة وتصحيحه.

الخاتمة :- وتشتمل على أهم النتائج، والتوصيات والاقتراحات.

أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم

المبحث الأول: قضية الحـــــــــاكميــــــــــة ونقدها

لا أبالغ إذا قلت أن الحاكمية من أخطر الأصول الفكرية لدى الجماعات التكفيرية على الإطلاق، ولا غرو؛ فعلى أساسها تتابعت أحكام التكفير تترا لتنال الحكام والمحكومين، ومن رحمها وُلدت فكرة الجهاد ضد جميع المخالفين، ومن خلالها كان النداء بالهجرة والفرار إلى دولة الخلافة الإسلامية على حد زعمهم!

تلك الترهات وغيرها تدفعنا بالضرورة إلى البحث عن المفهوم الصحيح لمصطلح الحاكمية؛ وبيان المفاهيم المغلوطة حوله من جانب الجماعات التكفيرية، ثم دحض المعتقد بالأدلة الشرعية النقلية والعقلية والواقعية، ويتضح ذلك جليا من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: تحرير المصطلح وبواكير ظهوره.

الحاكمية في معاجم اللغة:

يأتي مصطلح الحاكمية في معاجم اللغة على أوجه كثيرة ومختلفة؛ نذكر منها ما يلي:

١- يأتي بمعنى المنع: أي "الْمَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ، وَسُمِّيَتْ حَكَمَةُ الدَّابَّةِ لِأَنَّهَا تَمْنَعُهَا، يُقَالُ حَكَمْتُ الدَّابَّةَ وَأَحْكَمْتُهَا، وَيُقَالُ: حَكَمْتُ السَّفِيهَ وَأَحْكَمْتُهُ، إِذَا أَخَذْتَ عَلَى يَدَيْهِ"(١)

٢- ويأتي بمعنى العلم والفقه، قال تعالى:"{وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً}(٢) أي علما وفقها"(٣)

٣- كما يأتي أيضا بمعنى الحكمة، يقال: "أَحْكَمَتْه التجارب إذا كان

(١) معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، مادة حكم، جـ٢، صـ٩١، ط: دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) سورة مريم، من آية ١٢

(٣) تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، جـ٤، صـ٦٩، مادة حكم، ، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط:١، ٢٠٠١م.

حكيما"[١] "وَفِي الْحَدِيثِ: {إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ لحُكْماً}[٢] أَيْ إِن فِي الشِّعْرِ كَلَامًا نَافِعًا يَمْنَعُ مِنَ الْجَهْلِ والسَّفَهِ وينهى عَنْهُمَا"[٣]

٤- كذلك يأتي بمعنى: "القضاء بالعدل"[٤] يقال: "حَكَّمنا فُلاناً أمرَنا: أي: يحكُمُ بيننا، وحاكَمناه إلى الله: دَعَوناه إلى حُكم الله"[٥]

٥- وأخيرا تأتي الحاكمية في معاجم اللغة بمعنى الإتقان، يُقال: "أَحْكَمَ الْأَمر، أتقنه، وَقَوله تَعَالَى: {كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثمَّ فُصِّلَتْ}[٦] جَاءَ فِي التَّفْسِير[٧]: أُحْكِمتْ آيَاته بِالْأَمر وَالنَّهْي والحلال وَالْحرَام"[٨] "وَالْحَكِيمُ أَيْضًا الْمُتْقِنُ لِلْأُمُورِ"[٩]

---

(١) معجم العين: للفراهيدي، جـ٣، صـ٦٦، ط: دار ومكتبة الهلال، بدون ت.

(٢) أصل الحديث في سنن أبي داوود، وقد ورد بلفظ: "إِنَّ مِنَ البَيَانِ سِحْرًا، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حُكْمًا" جـ٤، صـ٣٠٣، حـ٥٠١١، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) لسان العرب: لمحمد بن مكرم بن على أبي الفضل جمال الدين ابن منظور، جـ١٢، صـ١٤١، مادة حكم، ط: دار صادر – بيروت، ط:٣، ١٤١٤ هـ

(٤) تهذيب اللغة: للأزهري، جـ٤، صـ ٦٩، مادة حكم، مرجع سابق.

(٥) معجم العين: للفراهيدي، جـ٣، صـ٦٧، مادة حكم، مرجع سابق.

(٦) سورة هود، من آية ١

(٧) انظر معاني القرآن وإعرابه: لإبراهيم بن السري بن سهل، أبي إسحاق الزجاج، جـ٣، صـ٣٧، ط: عالم الكتب – بيروت، ط:١، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

(٨) المحكم والمحيط الأعظم: لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، جـ٣، صـ٥٠، مادة حكم، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط:١، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.

(٩) مختار الصحاح: لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، صـ٧٨، مادة حكم، ط: المكتبة العصرية – بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م

بعد هذا البيان اللغوي بات واضحا أن مادة (حكم) لها استعمالات كثيرة ومختلفة في لغة العرب، فتارة يعبرون بها عن المنع، وتارة يطلقونها على الفقه والعلم، وتارة يستعملونها في القضاء والحكم... إلى آخره، ومن مجموع هذه المعاني اللغوية يتجلى المفهوم الاصطلاحي للحاكمية من خلال العنصر الآتي.

الحاكمية في الاصطلاح:

بعد البحث والفحص عن المفهوم الصحيح لمصطلح الحاكمية تبين أنه يعني: "الالتزام بما نزل من شرع الله ، وهذا لا يمنع احتكام البشر إلى قوانين يضعونها في إطار مبادئ التشريع العامة وقواعده الكلية، وفقا لتغير الزمان والمكان"(١)

من خلال هذا الفهم الصحيح لمصطلح الحاكمية بدا واضحا أن هناك حاكمية إلهية وحاكمية بشرية؛ وكلاهما لا يتعارض على الإطلاق مع الآخر، فإذ كانت حاكمية الإله تختص بالتشريعات فإن حاكمية البشر تسير في ضوء تلك التشريعات وتتعامل مع ما يطرأ عليها من أحداث ومستجدات بما لا يخالف المقاصد العامة للتشريع الذي حدّه الإله جل في علاه، بيد أن الجماعات المتطرفة كان لها مفهوما آخر لمصطلح الحاكمية يظهر بوضوح من خلال تتبع باكورة ظهور المصطلح كما في العنصر الآتي.

بواكير ظهور الحاكمية.

إذا بحثنا عن بواكير ظهور الحاكمية من حيث التصور والاعتقاد فإن المصطلح قد يعود بنا إلى ما قبل التاريخ، ويتضح ذلك بجلاء من خلال ما يلي:

أولا: الحاكمية في حضارات العالم القديم.

---

(١) مفاهيم يجب أن تصحح: للأستاذ الدكتور عبد الله مبروك النجار، وآخرون، صـ ١٢، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

منذ فجر التاريخ وفكرة الحاكمية تراود العديد من الحكام والفراعنة والسلاطين، وكيف لا؟ وقد استطاعوا من خلال هذه الحاكمية أن يضيفوا إلى حكمهم وملكهم هالة من القداسة الإلهية؛ ومن ثم كان زعمهم بأن القرارات التي تصدر عنهم إنما تصدر عن الله مباشرة!!

من هذا المنطلق كانت الشعوب في مصر القديمة تدين بالولاء إلى الحاكم ليس باعتباره حاكما بشريا فحسب بل حاكما إلهيا في المقام الأول، حيث "كان الفرعون الحاكم في اعتقادهم صورة لله على الأرض، وكانت المحاكم عندما تصدر حكمًا بالإعدام ترفعه إلى الفرعون الذي كان وحده صاحب الحق في سلب الحياة من أي فرد من رعاياه وعندما كان الفرعون يصدق على الحكم؛ كان هذا الحكم بالمعنى الحرفي يعتبر حكم الله"(١)

وخير شاهد على ذلك تلك الغطرسة التي كان يمارسها فرعون وجنوده، فلم يدّعي الحاكمية الإلهية وحدها بل ادّعى الألوهية ذاتها!

وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي"(٢) ولم يكتف بذلك بل قالها متغطرسا بكل وضوح كما أشار القرآن الكريم حكاية عن فرعون: "فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى"(٣) ولا أخفي أن سذاجة الأتباع قد أسهمت بشكل رئيس في تنفيذ تلك الحاكمية، ولا غرو فقد انصاعوا للأوامر

---

(١) الإسلام السياسي: للمستشار محمد سعيد العشماوي، صـ٥٠، ط: مكتبة مدبولي الصغير؛ القاهرة، ط:٤، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.

(٢) سورة القصص، من آية ٣٨

(٣) سورة النازعات، الآية ٢٤

والنواهي دون أدنى تفكير أو ممانعة، وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم أيضا في قوله: " فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ"[1]

هكذا كانت الحاكمية ملاذا آمنا للفراعنة والسلاطين مارسوا من خلالها الغطرسة السياسية بمختلف أشكالها وألوانها، الأعجب من ذلك أن فكرة الحاكمية أخذت تراود العديد من العناصر المتطرفة عبر العصور والدهور إلى أن اكتوى بنارها المسلمون وهذا ما أميط اللثام عنه في العنصر التالي.

ثانيا: الحاكمية في التاريخ الإسلامي.

امتداد للحاكمية الفرعونية لا أخفي سرا أن التاريخ الإسلامي لم يسلم من الجماعات المتطرفة التي فهمت الحاكمية بشكلها المغلوط فأنكرت حاكمية البشر وحصرتها أيضا في حاكمية الإله، وطائفة الخوارج[2] خير شاهد ودليل في هذا الميدان.

لقد ذكر الإمام الطبري[3] ـ "أن عليا بينما هو يخطب يوما إذ قام إليه رجل من الخوارج فقال: يا علي أشركت في دين الله الرجال ولا حكم إلا لله، فتنادوا من كل

---

(١) سورة الزخرف، من آية ٥٤

(٢) أبان الإمام أبو الحسن الأشعري رحمه الله أن مصطلح الخوارج هذا: يُطلق على تلك الطائفة التي خرجت على الإمام عليّ رضي الله عنه حيث قال: "والسبب الذي له سموا خوارج خروجهم على علي بن أبي طالب رضي الله عنه" (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن الأشعري، صـ١٢٧، ١٢٨، ط: دار فرانز شتايز، ألمانيا ط:٣، ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠م)

(٣) هو: "أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، ولد بآمل وهي قصبة طبرستان، في أواخر سنة أربع وعشرين ومائتين هجرية، وتوفي يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاثمائة، روى عن: أربعة وسبعين وأربعمائة شيخ، وعلى رأس شيوخه الإمام

جانب: لا حكم إلا لله، لا حكم إلا لله، فجعل علي يقول: هذه كلمة حق أريد بها باطل، ثم قال: إن لكم علينا أن لا نمنعكم فيئا ما دامت أيديكم معنا، وأن لا نمنعكم مساجد الله، وأن لا نبدأكم بالقتال حتى تبدؤونا"(١)

هكذا آمنت طائفة الخوارج بفكرة الحاكمية بدافع من الفهم المغلوط للنصوص الدينية، وعلى إثرها قامت بتوزيع صكوك التكفير على البشر بلا ضابط ولا رابط، بيد أن الذي يميز هذه الحاكمية عما سبقها من حاكميات؛ أن الخوارج في هذا المقام لم يعينوا فردا بعينه وأسندوا إليه حاكمية الإله؛ وإنما أوكلوا الأمر كله لله، وتبقى هنا الإشكالية الكبرى التي لم تجد لها الجماعات التكفيرية حلا ولا مخرجا حتى وقتنا هذا؛ لو سلمنا فرضا بصحة هذه الحاكمية التي دعت إليها الخوارج فمن الذي يقوم بتطبيق تلك الحاكمية وتنفيذها؟! من الذي يقرر أن هذا الحكم يصلح هنا ولا يصلح هاهنا؟! أليست هذه الأدوار من التكاليف المسندة إلى البشر؟!

الإجابة على تلك التساؤلات تستلزم قطعا الإيمان الجازم بأن حاكمية البشر ما هي إلا امتداد لحاكمية الإله، ولا يشك عاقل في حاجة البشرية إلى الاثنين معا، ومع هذا الإلزام العقلي الذي لا ينتطح فيه عنزان إلا أن الجماعات المتطرفة في وقتنا الراهن ما زالت تردد فكر الخوارج كترديد الببغاوات دون إمعان عقل أو نظر وهذا ما يكشف عنه العنصر التالي بجلاء.

ثالثا: الحاكمية في العصر الحديث.

البخاري" (معجم شيوخ الطبري: لأكرم بن محمد زيادة الفالوجي، صـ٤٧، ط: الدار الأثرية، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م)

(١) البداية والنهاية: لابن كثير، جـ٧، صـ٣١٢، ط: دار إحياء التراث العربي، ط:١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

رغم أن الحاكمية ظهرت كمعتقد منذ فجر التاريخ بيد أنها لم تأخذ تلك الشهرة الواسعة إلا بعد أن طرحها المودودي(١) وسيد قطب(٢) في كتاباتهم الأمر الذي دفع كثيرا من أهل العلم يقولون: "لم يعرف لفظ الحاكمية في التاريخ الإسلامي إلا في القرن الرابع عشر الهجري وأول من أطلقها أبو الأعلى المودودي، ورددها من بعده سيد قطب، ومنذ ذلك الحين شاع لفظ الحاكمية بين الجماعات الإسلامية المسلحة"(٣)

ومما يؤيد هذا الاتجاه ويقويه هو اعتراف الجماعات التكفيرية صراحة بأنها قد تأثرت بفكرة الحاكمية من خلال ما أورده سيد قطب في مؤلفاته، يقول أبو مصعب السوري(٤): "فجسد كتاب المعالم(١) وفكر سيد عموما فكر الحاكمية

(١)"وُلد أبو الأعلى المودودي سنة ١٣٢١هـ – ١٩٠٣م في مدينة أورنج آباد جنوبي الهند، وانتخب عام ١٩٤١م أول رئيس للجماعة الإسلامية، وقد حوكم وسجن، وتوفي سنة ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م" (للتفاصيل يُنظر تكملة معجم المؤلفين: لمحمد خير بن رمضان بن إسماعيل، صـ٨٣ وما بعدها، ط: دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط:١، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧)

(٢) هو: "سيد قطب إبراهيم من مواليد قرية موشا في أسيوط، سنة ١٣٢٤هـ – ١٩٠٦م، انتخب عضوًا في مكتب الإرشاد وفي أغسطس سنة ١٩٦٥م أصدر الحكم عليه بالإعدام" (تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان: لإبراهيم عبيد عبد المحسن، جـ٦، صـ٣١، بتصرف، ط: مكتبة الرشد، الرياض، ط:١، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م)

(٣) الثقافة الإسلامية: للأستاذ الدكتور إبراهيم الهدهد وآخرون، صـ٧٩، ٨٠، ط: الأزهر الشريف، ط:٢، ١٤٤١هـ – ٢٠٢٠م.

(٤) هو: "مصطفى بن عبد القادر ست مريم نصار، وكنيته أبو مصعب السوري، وُلد في في بداية تأسيسه وقد كان قبل ذلك من بتنظيم القاعدة عام ١٩٥٨م التحق حلب مدينة الجهاد الأفغاني" (دعوة المقاومة الإسلامية العالمية: خلال مرحلة أسامة المقربين من الشيخ لأبي مصعب السوري عمر عبد الحكيم، صـ١٦٠٤، بدون ط، شوال ١٤٢٥هـ –٢٠٠٤م، وينظر أيضا الموسوعة الحرة بشبكة المعلومات العنكبوتية، مادة بعنوان: أبو مصعب السوري)

والتمايز والمفاصلة، وبالتالي الحكم بالكفر والردة على أنظمة الحكم القائمة والدعوة الصريحة لجهادها ورسم معالم طريق هذا الجهاد"(٢)

هكذا اعترفت العناصر التكفيرية بلسانها أن سيد قطب هو الذي جسد فكرة الحاكمية ورسم معالمها الأمر الذي يدفعنا إلى التساؤل الذي بات ملحا للغاية؛ ماذا قال هؤلاء بخصوص الحاكمية؟

يقول أبو الأعلى المودودي: "الحاكمية بكل معنى من معانيها لله تعالى وحده، فإنه هو الحاكم الحقيقي في واقع الأمر، ولا يستحق أن يكون الحاكم الأصلي إلا هو وحده"(٣)

امتداد لهذا المفهوم الذي طرحه المودودي انطلق سيد قطب يحدد معالم الحاكمية الإلهية معتبرا إياها: "الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور، أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور "(٤)

---

(١) يقصد كتاب معالم في الطريق: لسيد قطب.

(٢) دعوة المقاومة الإسلامية العالمية: لأبي مصعب السوري عمر عبد الحكيم، صـ ٦٩٢، ٦٩٣، بدون ط، شوال ١٤٢٥هـ –٢٠٠٤م.

(٣) تدوين الدستور الإسلامي: لأبي الأعلى المودودي، صـ ١٨، ط: مؤسسة الرسالة، ط:٥، ١٤٠١هـ – ١٩٨١م.

(٤) معالم في الطريق: لسيد قطب، صـ ٥٩، ط: دار الشروق، ط:٦، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

أما عن مفهومه لحاكمية البشر فقد حدد معالمها بقوله: "الحكم الذي مرَدُّ الأمر فيه إلى البشر، ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر، يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله"[١]

ومن هذا المنطلق كانت دعوته الصريحة إلى "تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض"[٢]

من القراءة الاستهلالية لمفهوم الحاكمية عند هؤلاء النفر يُلاحظ منذ الوهلة الأولى أنها لا تختلف كثيرا عن الحاكمية التي نادى بها الخوارج؛ إن لم تزد عليها في التمرد والطغيان، ويتضح ذلك جليا من خلال ما يلي:

١- تفسير الحاكمية هنا بالثورة الشاملة والتمرد الكامل على ممالك البشر يتصادم تصادما مباشرا مع مبادئ الحاكمية الإلهية التي دفعت الناس إلى تعمير الأرض لا تخريبها، قال تعالى: "هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"[٣] بل نهى عن التخريب بعد التعمير؛ فقال تعالى: "وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا"[٤] وكررها مرارا: "وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ"[٥] "وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ"[٦] "وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ"[١] أليست هذه الآيات البينات تتعارض مع الثورة الشاملة التي تدعونا إليها الجماعات المتطرفة؟!

---

(١) المرجع السابق، صـ ٦٠

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) سورة هود، من آية ٦١

(٤) سورة الأعراف، من آية ٥٦

(٥) سورة البقرة، من آية ٦٠

(٦) سورة البقرة، من آية ٢٠٥

٢- رفْضُ النص القطبي للحاكمية البشرية بزعم أنها تتطلب ألوهية البشر؛ دعوى لا سند لها من عقل فضلا عن نقل؛ بل يكذبها الواقع المعاصر جملة وتفصيلا، وإلا فأين هذا الحاكم الذي يعبده الناس من دون الله؟

٣- الأخطر من كل ما سبق أن هذا النص الذي يدعو صراحة إلى تحطيم مملكة البشر يحمل بين جنباته إذنا صريحا للجماعات المتطرفة بشرعنة تطرفها وإرهابها فضلا عن تقنين أوضاعها طالما أن هذا التخريب يهدف إلى إقامة مملكة الله حسب زعمهم وهرائهم، وهذا ما حدث بالفعل؛ فعلى إثر هذه النصوص انطلقت الجماعات التكفيرية لتلبية النداء؛ فمارسوا كل أنواع الإرهاب بدعوى الحاكمية؛ وهذا ما أحاول إماطة اللثام عنه في المطلب الآتي.

المطلب الثاني: الحاكمية في عيون الجماعات التكفيرية.

استمرار لهذا التسلسل التاريخي لفكرة الحاكمية تتابعت الخطابات والبيانات الصادرة عن الكيانات الإرهابية في وقتنا الحاضر مطالبة بضرورة تطبيق مبدأ الحاكمية الإلهية وإلا فالعقوبات محققة والمشانق معلقة! ويتضح ذلك بجلاء من خلال العناصر الآتية:

أولا: لتكن البداية مع تنظيم القاعدة الذي شنّ حربا ضروسا على المجالس النيابية بدعوى استنادها إلى حاكمية البشر، حيث جاء في خطابهم ما نصه: "الإسلام دين الله، ومجالس النواب التشريعية دين الجاهلية، فمن أطاع الأمراء أو

---

(١) سورة المائدة، من آية ٦٤

العلماء في تحليل ما حرم الله، كدخول المجالس التشريعية أو تحريم ما أحل الله كالجهاد في سبيله فقد اتخذوهم أربابا من دون الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله"[١]

هكذا صرحت القاعدة وقررت رفضها القاطع للمجالس النيابية بزعم عودتها إلى عصور الجاهلية فضلا عن تعارضها مع مبدأ الحاكمية!

هذا الموقف العدائي يعيد لنا ذكرى التيارات الوهابية التي كان لها قصب السبق في هذا الميدان، حيث قطعت مسبقا بحرمة الانتخابات البرلمانية بمختلف أشكالها ومسمياتها، وكتبوا في هذه المسألة مؤلفات عدة، أبرزها: "تنوير الظلمات بكشف مفاسد وشبهات الانتخابات"[٢] بيد أن هذه الشبهات ذهبت أدراج الرياح بعد أن عادت السلفية المعاصرة إلى رشدها؛ وباتت تتسابق مع رفاقها على مقاعد البرلمان!!!

ثانيا: امتداد لمبادئ الحاكمية التي آمنت بها الجماعات التكفيرية تتابعت البيانات الصادرة عن الكيانات الإرهابية برفضها القاطع لأنظمة الحكم المعاصرة بمختلف أشكالها وألوانها؛ وبيان جبهة النصر خير شاهد ودليل؛ حيث جاء فيه: لا نريد إلا دولة تقوم على حاكمية الشريعة بلا خفاء ولا مداورة، بل ونعلنها بكل

---

(١) مجموع رسائل وتوجيهات أسامة بن لادن، صـ ٥١٢، من إصدارات نخبة الإعلام الجهادي، قسم التوثيق، ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م.

(٢) لأبي نصر محمد بن عبد الله الإمام، ط: الفرقان، ط:١، ١٤٢١هـ –٢٠٠١م.

صراحة بأننا لن نقبل بأية دولة مدنية أو ديمقراطية أو أية دولة لا تقوم على حاكمية الشريعة"(١)

تزامن هذا البيان مع خطاب تنظيم داعش(٢) الذي دعا فيه قائلا: "نرى وجوب التحاكم إلى شرع الله من خلال الترافع إلى المحاكم الشرعية في الدولة الإسلامية، والبحث عنها في حالة عدم العلم بِها، والتحاكم إلى الطاغوت من القوانين الوضعية والفصول العشائرية ونحوها من نواقض الإسلام، قال تعالى: وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ"(٣)

في الإطار ذاته زعمت العناصر التكفيرية أن: "كافة مصائب المسلمين وما نزل بهم من كوارث داخلية مردها في الحقيقة إلى غياب شرع الله عنهم، وحكمهم بغير ما أنزل الله"(٤)

هكذا أماطت الجماعات التكفيرية اللثام عن تصورها لمبدأ الحاكمية، ومن خلال تلك التصورات الهزلية بات واضحا ما يلي:

١- يبدو للناظر من أول وهلة أن البيانات تضمنت في فحواها ومحتواها العديد

---

(١) من بيانات جبهة النصرة، بيان إعلامي رقم ٩ منشور بتاريخ ٢٠ أيار ٢٠١٤م، نقلا عن تنظيم القاعدة ومشروع الدولة الإسلامية: لسعيد حازم السويدي، صـ ٩٧، ط: مركز ثبات للبحوث والدراسات، ط:١، ١٤٣٧هـ – ٢٠١٦م.

(٢) هو: "اختصار الدولة الإسلامية في العراق والشام وهم لا يرضون ولا يعترفون بهذا اللقب" (يُنظر بيان الضلال والخطأ الفاحش في الرضا والدفاع عن خوارج داعش: لمحمد إبراهيم المصري، صـ ٢٧، ط: مكتبة العقيدة الإسلامية؛ القاهرة، ط:١، ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م)

(٣) المرجع السابق، صـ ٣٣، والآية في سورة المائدة، من آية ٤٤

(٤) دعوة المقاومة الإسلامية العالمية: لأبي مصعب السوري عمر عبد الحكيم، صـ ١٦٣، مرجع سابق.

من العبارات الخدّاعة والشعارات البراقة الكفيلة بتأجيج مشاعر الموحدين حيث الدعوة إلى رفض أنظمة الحكم الغربية والدعوة إلى تحكيم الشريعة الإسلامية وغيرها من الدعوات التي لا يختلف فيها اثنان؛ لكن يبقى السؤال هل حقا نريد الاحتكام إلى الشريعة حسب توجيه الأئمة الأعلام لها؟ أم نريد الاحتكام إلى قوانين الغاب وشرائع الذئاب حسب توجيهات الجماعات التكفيرية وتصرفاتها؟!

٢- أكثر ما أثار حفيظتي في تلك البيانات الآنف ذكرها تعمد الجماعات التكفيرية اختطاف النصوص القرآنية من سياقها وتطويعها حسب أغراضهم الشيطانية فزعموا أن القوانين العصرية من قبيل الحكم بغير ما أنزل الله ومن ثم أضحت الحاجة ملحة إلى الثورة الشاملة على حاكمية البشر!! تلك الحاكمية التي نادت بها القطبية منذ عهد قريب.

٣- من اللافت للنظر أيضا أن الجماعات التكفيرية أغمضت عينيها عن جرائمها الحقيقية واختزلت مصائب المسلمين في إعراضهم عن الحاكمية الإلهية حسب فهمهم العقيم، في حين أن الناظر بعين الحقيقة يوقن أن هذه المصائب مردها إلى تلك الجماعات المتطرفة التي أضرت بالإسلام والمسلمين.

ثالثا: الأعجب من كل ما سبق؛ هذه الفتوى التكفيرية التي زعمت أن أتباع القوانين العصرية مثل كفار قريش!! بل أشد كفرا!! وذلك بسبب إعراضهم على قبول الحاكمية بالشكل الذي صورته الجماعات التكفيرية!!

هكذا قالوا نصا: "واعلم أن كفرهم هذا أبشع من شرك كفار قريش الذين كانوا مثل هؤلاء يعدّدون الآلهَة والأرباب ويشركونها مع الله في العبادة، لكن كانت عبادة

أولئك سجود وركوع، وعبادة هؤلاء طاعة في التشريع في كافة الأبواب...فتبا وسحقاً سحقاً لمن كان أشد كفراً من أبي جهل وأبي لَهب"[١]

من الواضح أن القوم ما زالوا عند إصرارهم وعنادهم بأننا نشرك مع الله في حكمه أحدا، بل زادوا في غيّهم وبغيهم وضلالهم حين زعموا ظلما وزورا بأن أفراد المسلمين أشد كفرا من المشركين، وعللوا ذلك بأن عبادة الأخير سجود وركوع لأصنام يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، بينما المسلمون يعبدون التشريعات التي يحتكمون إليها ويعظمونها أكثر من شعائر الله، ومن ثم فإن كُفر المسلمين لم يرتق حتى إلى كفر أبي جهل وأبي لهب!!

قد يتعلل البعض بأن الجماعات التكفيرية متطرفة بطبعها؛ ومن ثم فلا داعي للتعجب من صنيعها؛ لكن ماذا إذا صدرت تلك الترهات من أبناء دارنا؟!!

إذا كانت الجماعات التكفيرية كشرت عن أنيابها فقط في الأعوام الأخيرة فقد سبقتها الحركات الوهابية بعقود عديدة، حيث صرحت بأن أبا جهل وأبا لهب أكثر توحيدا لله وأخلص إيمانا به، من المسلمين الذين يتوسلون بالأولياء والصالحين ويستشفعون بهم إلى الله!! هكذا قالوا نصا: "أبو جهل وأبو لهب أكثر توحيدا وأخلص إيمانًا من هؤلاء المسلمين الذين يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله!"[٢] أرأيتم من أين تستقي الجماعات المتطرفة جهلها وضلالها؟! أرأيتم كيف بغى علينا أبناء دارنا؟! أبو لهب الذي سيصلى نارا ذات لهب أشد حبا لله ورسوله من الموحدين!! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) كشف شبهات المجادلين: لأبي محمد عاصم المقدسي، صـ ١٣، ١٤، من إصدارت غرفة الفجر الإسلامية، صفر ١٤٢٠هـ.

(٢) كيف نفهم التوحيد: لمحمد بن أحمد باشميل، ط: الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط:٢، ١٤٠٦هـ

هكذا أبان هذا العرض السابق جانبا من ملامح ومظاهر الحاكمية لدى الجماعات التكفيرية؛ حيث كانت البداية مع تلك الثورة الشاملة والحرب الضارية على القوانين العصرية بدعوى احتكامها إلى دين الجاهلية، بعد ذلك تتابعت الخطابات والبيانات تترا للمطالبة بالحاكمية الإلهية، وأخيرا بات الحكم قاطعا بتكفير كل من آمن بالحاكمية البشرية!! هذه الترهات وغيرها تدفعنا بالضرورة إلى البحث عن الحاكمية في ميزان الشرع الحكيم، وذلك من خلال المطلب التالي.

المطلب الثالث: **نقد الحاكمية في ميزان الشريعة الإسلامية**.

بعد أن أبان المطلب السالف جانبا من تصورات الجماعات التكفيرية لفكرة الحاكمية؛ يطيب لي في هذا المطلب عرض جانب من الأدلة الشرعية التي تكفلت بالرد على تلك المزاعم والافتراءات؛ بل تكفلت بوأدها في مهدها واجتثاثها من جذورها، ونظرا لكثرتها الكاثرة أكتفي بعشر منها على سبيل النمذجة:

أولا: لتكن خير بداية مع كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقد احتوى بين دفتيه عشرات الآيات القرآنية الناطقة بحاكمية البشر؛ تلك الحاكمية التي رفضتها الجماعات التكفيرية جملة وتفصيلا، وأذكر من بين هذه الآيات ما يلي:

١- قال الله تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: "إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ"[١]

٢- إلى جانب ذلك أيضا يقول الله تعالى مخاطبا نبيه داود ؑ: "يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ

(١) سورة النساء، من آية ١٠٥

خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ"[١]

من الذي يحكم في هذا المقام؟ أليس هذا إسنادا لحاكمية البشر؟ لا أخفي أن البعض قد يتعلل بأن الآيات الواردة هنا أسندت الحاكمية للأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وهم وإن كانوا من طبيعة البشر إلا أن العصمة واجبة في حقهم، هذا الاعتراض الذي قد يُعد مقبولا في بعض جوانبه يدفعنا للتأمل في العرض الآتي.

ثانيا: لم يكتف القرآن الكريم بإسناد الحاكمية للأنبياء وحدهم بل أسندها أيضا لعموم البشر في كثير من الآيات ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وأَدَعُ الآيات تحدثكم بنفسها عما تضمنته من حقائق واضحة بهذا الصدد:

١- قال الله تعالى: "وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا"[٢] تأمل ماذا قال؟! حكما من أهله وحكما من أهلها!!

٢- إضافة إلى ذلك يقول الله تعالى: "وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"[٣]

من هؤلاء الحكام الذين أسند الله إليهم الحاكمية؟ قطعا ليسوا من الأنبياء ولا من الملائكة بل هم من صنف البشر!! والحقيقة أن الآيات الواردة في هذا الباب يصعب حصرها في هذا المقام ولذا أكتفي بهذا القدر وأنتقل إلى السنة النبوية

---

(١) سورة ص، من آية ٢٦

(٢) سورة النساء، الآية ٣٥

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٨

المطهرة لنبحث في أغوارها ونشاهد كيف صورت لنا فكرة الحاكمية؛ وهذا ما تكفل بإماطة اللثام عنه العنصر الآتي.

ثالثا: بعد البحث والدرس والفحص لاحظت أن السنة النبوية المطهرة هي الأخرى أسندت الحاكمية إلى البشر، ولا غرو فقد جاءت السنة مفسرة لما جاء في القرآن الكريم، مبينة لمجمله، ومفصلة لمحكمه، وأذكر من بين هذه النصوص ما يلي:

جاء في صحيح الإمام مسلم أن النبي ' كان إذا أمّر أميرا على جيش، أو سرية، أوصاه قائلا: "وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ"(١)

الكلمات واضحة كالشمس في ضحاها والقمر إذا تلاها، إسناد الحاكمية هنا للبشر لا لبس فيه ولا غموض بنص الحديث: أنزلهم على حكمك، حكم من؟ بالطبع حكم البشر؛ ولا يُعد هذا رفضا لحاكمية الإله على الإطلاق بل دليل قاطع على أن حاكمية الإله لن تقوم إلا بحكم البشر.

رابعا: لم يكتف النبي ' ببيان مشروعية الحاكمية للبشر؛ بل أعرب في الوقت ذاته عن رفضه القاطع لكل أشكال الحاكمية المتسلطة المتغطرسة التي تنادي بها الجماعات التكفيرية، يقول النبي ': "إِنَّ فِيكُمُ النُّبُوَّةَ، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ

(١) صحيح مسلم، كتاب: الجهاد والسير، باب: تأمير الإمام الأمراء على البعوث، جـ٣، صـ١٣٥٧، حـ ١٧٣١، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون ت، من رواية سليمان بن بريدة، عن أبيه رضي الله عنهما.

النُّبُوَّةُ، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَجَبَرِيَّةً"[1] وفي رواية: "إِنَّ أَوَّلَ دِينِكُمْ بَدَأَ نُبُوَّةً وَرَحْمَةً، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةً وَرَحْمَة، ثُمَّ يَكُونُ مُلْكًا وَجَبْرِيَّةً، يُسْتَحَلُّ فِيهَا الدَّمُ"[2]

في هاتين الروايتين كشف النبي ‘ عن الفرق الشاسع بين الحاكمية على منهاج النبوة؛ والحاكمية المتغطرسة القائمة على الطغيان الديني والكهنوت، وحسبنا أن النبي ‘ سماها حكما جبريا لأنها تتنافى جملة وتفصيلا مع حاكمية الإله.

خامسا: استمرار لهذا المفهوم الصحيح لفكرة الحاكمية كان الصحابة رضوان الله عليهم يفرقون أيضا بين الحاكمية على منهاج النبوة والحاكمية المهيمنة، وليس أدل على ذلك

من قول العباس ¢ حين خاطبه أبو سفيان رضى الله عنه : "وَاللهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ، لَقَدْ أَصْبَحَ ملْكَ ابْنِ أَخِيكَ الْغَدَاةَ عَظِيمًا. قُلْتُ: يَا أَبَا سُفْيَانَ، إِنَّهَا النُّبُوَّةُ. قَالَ: فَنَعَمْ إِذَنْ"[3]

من الواضح أن أبا سفيان ¢ كان يخلط قبل إسلامه بين حاكمية الملوك المتغطرسة وبين حاكمية النبوة؛ بيد أن العباس ¢ تكفل بتصحيح المسار.

---

(١) المعجم الكبير: الطبراني، جـ١، صـ١٥٧، حـ٣٦٨، ط: ابن تيمية – القاهرة، ط: ٢، مسند الإمام أحمد، جـ٣٠، صـ٣٥٥، حـ١٨٤٠٦، من حديث حذيفة رضي الله عنه، واللفظ للطبراني.

(٢) مسند البزار، جـ٤، صـ١٠٨، ط: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط:١، ١٩٨٨م، من حديث أبي عبيدة بن الجراح ¢، السنن الكبرى: للبيهقي جـ٨، صـ٢٧٥، حـ١٦٦٣٠، تحقيق : محمد عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:٣، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م

(٣) المعجم الكبير: للطبراني، جـ٨، صـ٩، حـ٧٢٦٤، مرجع سابق.

سادسا: إذا تجاوزنا الحكم في عهد النبي ، وأخذنا في البحث عن طبيعة الحاكمية في عهد الخلفاء الراشدين؛ نلاحظ تأكيدهم على حاكمية البشر من خلال فعالهم، وليس هناك أدل على ذلك من قول الصديق ¢ حين تولى الخلافة: "أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة"(١)

من خلال هذا الخطاب الشهير بات واضحا أن اختيار الحاكم وعزله والرقابة عليه إبان حكمه حرية كفلها الإسلام للجميع، وما دفعهم إلى ذلك إلا لإقرارهم واعترافهم بحاكمية البشر في ضوء تشريعات الإله.

سابعا: امتداد لهذا المفهوم الشرعي لمعنى الحاكمية في عهد الصديق ¢ كان الفاروق عمر ¢ يصدر خطابه دائما بقوله هذا ما رأى عمر! وخير شاهد على ذلك حينما "كتب كاتب لعمر بن الخطاب ¢: هذا ما أرى الله أمير المؤمنين عمر, فانتهره عمر ¢, وقال: لا، بل اكتب: هذا ما رأى عمر، فإن كان صوابا فمن الله, وإن كان خطأ فمن عمر "(٢)

هكذا أعلنها الفاروق ¢ صريحة مدوية، الفاروق الذي فرّق الله به بين الحق والباطل أصرّ أن ينسب الأمور في شئون حكمه إلى نفسه وليس إلى الله؛ ليقول لذوي الأفهام المريضة والنفوس الضعيفة أن للحاكم حكم ورأي واجتهاد مشروع طالما لم يصطدم بالحاكمية التشريعية التي وضعها الإله، فهل ما زالت

---

(١) البداية والنهاية: لابن كثير، جـ٦، صـ٣٣٣، مرجع سابق.

(٢) السنن الكبرى: للبيهقي جـ١٠، صـ١٩٧، حـ٢٠٣٤٨، من رواية مسروق رضي الله عنه.

الجماعات التكفيرية لديها الرغبة في إعلان ثورة شاملة على حاكمية البشر؟ لعلها ثورة على الدين في المقام الأول.

ثامنا: إضافة إلى ما سبق؛ إذا تتبعنا أنظمة الحكم بعد رسول الله ، نلاحظ أن جميع الخلفاء والأمراء كانوا يتعاملون مع ما يطرأ لهم من أحداث ومستجدات بمرونة بالغة، ولا شك أن هذه المرونة تتعارض مع فكرة الحاكمية التي تتبناها الجماعات التكفيرية، مما يدفعنا إلى السير في أحد الطريقين لا ثالث لهما؛ إما أن نكون في ركاب الجماعات التكفيرية فنحكم بالكفر على هؤلاء جميعا كما فعل الخوارج؛ وإما أن نهتدي بهدي هؤلاء الخلفاء كما أوصانا رسول الله : "مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ"[(١)] أنتم بالخيار وعند الله تلتقي الخصوم!!

تاسعا: من زاوية أخرى لا يخفى على القاصي والداني أن هناك المئات بل الآلاف من المسائل المسكوت عنها التي لم يرد فيها نصوص صريحة لا في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية المطهرة، هذه المسائل لا ينكرها إلا من كان في عينيه رمد، وحسبنا أن النبي أشار إليها في قوله: "الْحَلَالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عُفِيَ عَنْهُ"[(٢)]

التساؤل الذي يطرح نفسه الآن: من المنوط بالفصل في تلك القضايا المسكوت عنها في القرآن والسنة؟ بالطبع لن يقوم بذلك سوى البشر، السؤال الأهم من الذي أعطاهم

---

(١) سنن أبي داود، جـ٤، صـ٢٠٠، حـ٤٦٠٧، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٢) المستدرك على الصحيحين: لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري، جـ٤، صـ١٢٩، حـ٧١١٥، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط:١، ١٤١١هـ – ١٩٩٠م، قال الذهبي: هذا حديث صحيح.

هذا الحق وأذن لهم بالاجتهاد؟ إليكم الإجابة واضحة كالشمس في رابعة النهار تتلألأ في العنصر الآتي.

عاشرا: جاء في سنن أبي داود "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ' لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: «كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟»، قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟»، قَالَ: فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ '، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ '، وَلَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟» قَالَ: أَجْتَهِدُ رَأْيِي، وَلَا آلُو[1] فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ' صَدْرَهُ، وَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ، رَسُولِ اللَّهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللَّهِ"[2]

أليست هذه سنة تقريرية صريحة من رسول الله ' تؤكد على ضرورة اجتهاد البشر؟! انظر! لم يكتف بإقراره على حكمه واجتهاده فحسب بل عبّر عن رضاه الكامل بهذا الاجتهاد البشري طالما يسير في ظل التشريع الإلهي.

أكتفي بهذا القدر من عرض الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة الدالة على ضرورة الحاكمية الإلهية والبشرية معا؛ بيد أن الجماعات التكفيرية ضربت بكل هذه الأدلة عرض الحائط وأبت إلا أن تسير في طريق التضليل والتكفير وهذا يكشف عنه المبحث التالي بجلاء.

---

(١) آلو: "بالمد في أوله وضم اللام أي لا أقصر في ذلك ومنه قوله تعالى لا يألونكم خبالا أي لا يقصرون في إفسادكم" (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: للإمام النووي، جـ٤، صـ١٧٦، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط:٢، ١٣٩٢هـ)

(٢) سنن أبي داود، جـ٣، صـ٣٠٣، حـ٣٥٩٢، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه، سنن الترمذي، جـ٣، صـ٩، حـ١٣٢٧، ط: البابي الحلبي – مصر، ط:٢، ١٣٩٥ هـ – ١٩٧٥ م.

المبحث الثاني: قضية التكفيـــــــر ونقدها

امتداد لفكرة الحاكمية انطلقت الجماعات التكفيرية توزع بطاقات التكفير على جموع البشر بلا ضابط ولا رابط، فصارت تُخرج من الدين من تشاء؛ وتُبقي فيه من تشاء، ومن ثم ألحت الضرورة إلى تحرير مصطلح التكفير، وإماطة اللثام عن أبرز مظاهره لدى الجماعات التكفيرية، والتعرف على موقف الإسلام من هذا الهزل والهراء، ويتضح كل ذلك جليا عبر المطالب الآتية:

المطلب الأول: تحرير المصطلح.

التكفير في معاجم اللغة:

كان العرب يستعملون مادة كفر في اللغة العربية ويطلقونها على معان متعددة ومتباينة؛ أكشف عن جانب منها في النقاط الآتية:

١- تأتي مادة كفر بمعنى الستر؛ فـ"أَصلُ الكُفْرِ من الكَفْرِ بِالْفَتْحِ مَصدَر كَفَرَ بِمَعْنى السَّتْرِ"[١]

٢- كما يأتي أيضا بمعنى الجحود؛ يُقال: "كُفْرَانُ النِّعْمَةِ: جُحُودُهَا"[٢] ومنه قول الله تعالى: "وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ"[٣] أي "ولا تجحدوا إحساني إليكم"[٤]

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس: للزبيدي،جـ١٤، صـ٥٠، مادة كفر، ط: دار الهداية، بدون ت.

(٢) معجم مقاييس اللغة: للرازي، جـ٥، صـ١٩١، مادة كفر، مرجع سابق.

(٣) سورة البقرة، من آية ١٥٢

(٤) جامع البيان في تأويل القرآن: لابن جرير الطبري، جـ٣، صـ٢١٢، ط: مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٣- كذلك تأتي مادة كفر في معاجم اللغة بمعنى التغطية، سُميت بذلك لأنها تتسبب في "تَغْطِيَةُ الْحَقِّ"[١] ومنه قول الله تعالى: "كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ"[٢] "يعني الزراع لأنهم يغطون الحب"[٣]

٤- أضف إلى ذلك أن العرب كانوا يستعملون الكفر بمعنى "الليلُ، والبَحْرُ، والوادِي العظيمُ، والنهرُ الكبيرُ، والسَّحابُ المُظْلِمُ، والزارِعُ"[٤]

٥- وأحيانا يُطلق الكفر ويراد به التبري، قال تعالى: "ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ"[٥] أي: "يتبرأ بعضكم من بعض"[٦]

٦- فضلا عن كل ما سبق فإن الكفر الذي تعنيه الجماعات التكفيرية: "ضِدُّ الْإِيمَانِ"[٧] ومنه قول الله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"[٨]

---

(١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، جـ٢، صـ٨٠٧، مادة كفر، ط: دار العلم للملايين – بيروت، ط:٤، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٢) سورة الحديد، من آية ٢٠

(٣) الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، جـ١، صـ١٨٣، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة، ط:٢، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

(٤) القاموس المحيط: لمجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، صـ٤٧١، مادة كفر، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط:٨، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(٥) سورة العنكبوت، الآية ٢٥

(٦) تفسير يحيى بن سلام، جـ٢، صـ٦٢٦، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:١، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

(٧) معجم مقاييس اللغة: للرازي، جـ٥، صـ١٩١، مادة كفر، مرجع سابق.

(٨) سورة البقرة، الآية ٦

من مجموع هذه التعريفات اللغوية بدا واضحا كثرة المعاني اللغوية لمادة كفر في معاجم اللغة والتي يدور أغلبها حول الإنكار، والجحود، والظلام، والغروب، إشارة إلى ما تحمله الكلمة من سواد حالك وظلام دامس.

من الواضح أيضا في ضوء هذه الدلالات اللغوية أن الكفر إذا أُطلق في آي الذكر الحكيم لا يُشترط أبدا أن يكون المراد منه الارتداد عن الدين أو الكفار الأصليين، وحسبنا أن القرآن سمّى الزراع كفارا لأنهم يغطون الحب، فهل يحمل هذا المعنى أي إشارة من قريب أو من بعيد إلى نقصان الدين فضلا عن خروجهم منه؟! بالطبع لا، إلا أن الجماعات التكفيرية لم تنتبه لتلك الدلالات اللغوية والإشارات القرآنية واختزلت المعنى في الكفر بالدين، بل أصرت واستكبرت استكبارا.

المعنى الاصطلاحي للكفر:

لكي نتعرف على معنى الكفر في الاصطلاح ينبغي أولا أن نتعرف على مفهوم الإيمان عند أهل السنة والجماعة؛ فبضدها تتميز الأشياء.

يقول الإمام الأشعري[١] ¬: "إن قال قائل ما الإيمان عندكم بالله تعالى؟ قيل له: هو التصديق بالله، وعلى ذلك إجماع أهل اللغة التي نزل بها القرآن"[٢] "وأما القول باللسان والعمل بالأركان ففروعه، فمن صدق بالقلب أي أقر بوحدانية الله

---

(١) هو: "أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق، ويمتد نسبه إلى أبي موسى الأشعري، وُلد بالبصرة سنة سبعين ومائتين هجرية، وتوفي سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة، ودُفن ببغداد" (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لأبي العباس شمس الدين أحمد ابن خلكان البرمكي، جـ٣، صـ٢٨٤، بتصرف يسير، ط: دار صادر – بيروت، ١٩٠٠م)

(٢) اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع: للإمام أبي الحسن الأشعري، صـ١٢٣، ط: مصر، ١٩٥٥م.

تعالى، واعترف بالرسل تصديقا لهم فيما جاءوا به من عند الله تعالى بالقلب صح إيمانه حتى لو مات عليه في الحال كان مؤمنا ناجيا، ولا يخرج من الإيمان إلا بإنكار شيء من ذلك"[١]

من اللافت للنظر هذا الانسجام التام والتناغم الواضح بين المعاني اللغوية والتعريفات الاصطلاحية للتعريف بقضية الكفر والإيمان، ومن هذا المنطلق جاء تعريف الكفر على النحو الآتي:

الكفر هو: "ضد الإيمان وهو الجهل بالله ¸ والتكذيب به الساتر لقلب الإنسان عن العلم به فهو كالمغطي للقلب عن معرفة الحق"[٢]

هكذا بات واضحا أن الكفر والإيمان محلهما في قلب الإنسان، وأما القول باللسان والعمل بالجوارح والأركان فليسا من شروط صحة الإيمان بل من شروط تمامه وكماله، ولا عجب في ذلك فقد قال الله تعالى: "مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[٣] فقد أبانت الآية أن القلب هو المعيار الرئيس في قضية الكفر والإيمان؛ فالأول وقر الإيمان في قلبه فكان مستحقا للنعيم، والآخر انشرح بالكفر صدرا فكان مستحقا للعذاب الأليم، أما الجماعات المتطرفة فلديها مفاهيم أخرى بهذا الصدد تتضح معالمها وملامحها في المطلب التالي.

---

(١) الملل والنحل: للشهرستاني، جـ١، صـ١٠١، ط: مؤسسة الحلبي، بدون ت.

(٢) تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل: لأبي بكر الباقلاني المالكي، صـ٣٩٤، ط: مؤسسة الكتب الثقافية – لبنان، ط:١، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م

(٣) سورة النحل، الآية ١٠٦

المطلب الثاني: مظاهر التكفير عند الجماعات المتطرفة.

أخذ التكفير لدى الجماعات المتطرفة أشكالا متعددة ومظاهر متباينة، حيث قامت تلك الجماعات بتوزيع صكوك التكفير على جموع الموحدين بدون أي مقدمات لا سيما الطبقات الحاكمة وما يتبعها من أذرع أمنية ومؤسسات حكومية، ويتضح ذلك جليا من خلال العناصر الآتية:

أولا: إماطة اللثام عن تكفير الحكام.

من المعلوم لدى الجميع أن الجماعات التكفيرية اتخذت موقفا عدائيا من الطبقة الحاكمة بمختلف مسمياتها؛ حيث أبانت أن كفر هؤلاء الحكام صار واضحا لكل ذي عينين، ومما قالوه بهذا الصدد: "كفر هؤلاء الحكام الطواغيت هو عند من فقه دينه وعرف توحيده أوضح من الشمس في رابعة النهار، ولكن ليس من عجب أن يتشوش ضوء الشمس على من في عينيه رمد"(١)

هكذا يتحدثون عن كفرهم وكأنه بات من المسلمات البديهة التي لا نقاش فيها؛ لأنها أوضح من الشمس في ضحاها! بيد أن أغرب ما ذكره النص: الادعاء بأن هذا الحكم لا يعلمه إلا من تفقه في الدين! أيُ فقه هذا يدفعنا للتأله على الله والحكم على البشر بأن هذا في الجنة وذاك في النار؟!! لكن يا ترى ما البواعث التي دفعتهم لهذا التسليم المطلق بكفر الحكام؟؟ سيتولى العنصر التالي كشف الستار.

ثانيا: أبانت الجماعات التكفيرية أن الباعث الرئيس الذي دفعهم لتكفير الحكام هو كثرة استهزائهم بالإله جل في علاه!

هكذا تغرد العناصر التكفيرية وتقول نصا: "ويكفرون أيضا –أي الحكام– من باب استهزائهم بدين الله تعالى وشرائعه، وترخيصهم لكل مستهزئ به عبر الصحافة أو الإذاعة أو التلفاز وغيرها من المؤسسات الإعلامية الإباحية الكافرة التي حموها وحرسوها بقوانينهم وعساكرهم"(٢)

---

(١) كشف شبهات المجادلين عن عساكر الشرك وأنصار القوانين: لأبي محمد عاصم المقدسي، صـ ٧، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق، صـ ٩، ١٠

جرائم ثلاثة تضمنتها الفتوى الآنف ذكرها: استهزاء الحكام بالدين!! منح التراخيص اللازمة للمستهزئين!! حراسة المستهزئين بموجب القوانين!! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!!

لقد تناست الجماعات التكفيرية أن القوانين التي يكال لها الاتهامات بحماية المستهزئين يتصدرها قانون يؤدب به الحاكم كل من تسوِّل له نفسه الاستهزاء بآيات الله!! هل سمعت عنه العناصر التكفيرية من قبل؟! إنه قانون ازدراء الأديان[1] هذا القانون الذي يشهد أن الحاكم المتهم بحماية المستهزئين؛ هو ذاته الذي يحاكم المستهزئين بآيات الله!! هل انتهى الخداع عند هذا الحد؟! لعل العنصر التالي يميط اللثام.

ثالثا: الجماعات التكفيرية لم تكتف بالاتهامات الآنف ذكرها؛ بل زادوا في غيهم وتمادوا في ضلالهم وزعموا زوراً وبهتاناً أن الحكام نصَّبوا أنفسهم آلهة يُعبدون من دون الله تعالى!!

هذا لن تراه إلا في فتاوى الجماعات التكفيرية فقط وحصريا!! استمع إليهم وهم يقولون: "ونعلنها إنذارا من الله إلى كل مسلم له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، إن هؤلاء الحكام قد خدعوك وجعلوا أنفسهم آلهة عليك، فأطعتهم وخشيتهم، وظننت أن هناك عذرا سينفعك عند الله، تلك أسانيدهم، فنقول لكل المسلمين: ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين، ولا تجعلوا مع الله إلها آخر إني لكم منه نذير مبين"[2]

أكثر ما أثار انتباهي في هذه الفتوى ما جاء في صدرها، وعجزها؛ حيث تصدرت الفتوى بأن الجماعات التكفيرية لديها إنذار من الله وكأنهم وكلاء عن الله في أرضه؛ وما لبثت حتى زعمت أن الحكام نصَّبوا أنفسهم آلهة من دون الله؛ وبعد كل ذلك جاءت دعوتهم بالفرار من الله!! أيُ عقل هذا؟! أهو حقا فرار إلى الله؟! أم فرار من الله؟!

---

(١) بسبب هذا القانون تأدب خلق كثير في واقعنا المعاصر؛ منهم من قضى بالسجن سني حبسه، ومنهم من لاذ بالفرار خارج البلاد. (للتفاصيل يُنظر جريدة الأهرام الصادرة يوم الأربعاء ١٧ من ربيع الآخر ١٤٣٧ هـ ٢٧ يناير ٢٠١٦م، السنة ١٤٠، العدد ٤٧١٦٨)

(٢) الفريضة الغائبة: لمحمد عبد السلام فرج، صـ ٦٦، والآيتين من سورة الذاريات ٥٠، ٥١

رابعا: كان أمرا متوقعا أن تقرر الجماعات التكفيرية وتحدد مصير هؤلاء الحكام الذين نصَّبوا أنفسهم آلهة من دون الله حسب زعمهم، حيث أخبرونا أنهم لا يستحقون عقوبة الكافر الأصلي فحسب؛ بل يستحقون عقوبة المرتد، والأخير أصعب وأشد!!

تأمل هذه الفتوى: "فحكام هذا العصر في ردة عن الإسلام تربوا على موائد الاستعمار، سواء الصليبية أو الشيوعية أو الصهيونية، فهم لا يحملون من الإسلام إلا الأسماء وإن صلى وصام وادعي أنه مسلم، يقول ابن تيمية[١]: وقد استقرت السنة بأن عقوبة المرتد أعظم من عقوبة الكافر الأصلي من وجوه متعددة؛ منها أن المرتد يُقتل وإن كان عاجزا عن القتال؛ بخلاف الكافر الأصلي الذي ليس هو من أهل القتال...أن المرتد لا يرث، ولا يناكح، ولا تؤكل ذبيحته، بخلاف الكافر الأصلي إلى غير ذلك من الأحكام"[٢]

اللافت للنظر هنا هو استشهاد القوم بفتوى ابن تيمية في تكفير المرتد وإسقاطها على حكام العصر، ومع التسليم بأن المستشهد به تساهل في كثير من المسائل بالتكفير؛ بيد أنه في هذا المقام لا يشير إلى كفر الحكام لا من قريب ولا من بعيد، فبعد البحث عن مصادر فتوى ابن تيمية السالف ذكرها لا حظت أنها كانت في معرض حديثه عن ظلم التتار الذين كانوا يعبدون الياسق[٣] من دون الله!! حيث قال في شأنهم: "اعتقاد هؤلاء التتار كان في جنكسخان[١]

---

(١) هو: "أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني ابن تيمية، وتيمية لقب جده الأعلى ولد بحران عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين" (لمزيد من التفاصيل يُنظر الوافي بالوفيات: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، جـ٧، صـ١١، ط: دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م)

(٢) الفريضة الغائبة: لمحمد عبد السلام فرج، صـ ١٢، وللاطلاع على أصل الفتوى يُنظر الفتاوى الكبرى: لابن تيمية، جـ٥، صـ٢٥٤، ط: دار الكتب العلمية، ط:١، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

(٣) الياسق: "عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها عن شرائع شتى، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعا متبعا، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم" (تفسير القرآن العظيم: لابن كثير جـ٣، صـ١٣١، ط: دار طيبة، ط:٢، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م)

عظيما فإنهم يعتقدون أنه ابن الله من جنس ما يعتقده النصارى في المسيح ويقولون إن الشمس حبلت أمه وأنها كانت في خيمة فنزلت الشمس من كوة الخيمة فدخلت فيها حتى حبلت"[٢]

هذا الهزل والهراء والكذب والافتراء كان دافعا رئيسا لابن تيمية أن يحكم عليهم بالكفر والردة، إلا أن الجماعات التكفيرية تغافلت عن كل ذلك وتسابقت إلى اصطياد تلك الفتاوى وإسقاطها على قوم يؤمنون بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا، فهل رأيتم تلفيقا وتزويرا أبشع من ذلك؟!

خامسا: من الملاحظ أن أحكام التكفير لم تنته عند الحكام وحدهم؛ بل امتدت لتشمل الجيوش العربية والإسلامية ضمن صفوف المرتدين الهالكين حتى إن نطقوا الشهادة مرارا وتكرارا!!

من فحوى مؤلفاتهم جاء هذا النص بالحرف الواحد: "فما دام هؤلاء العساكر أو غيرهم غير كافرين بالطاغوت –الحكام– بل هم حرّاسه وأنصاره وجنده وأركانه وحفظته، فهم ليسوا بمسلمين ولا مؤمنين ولا متمسِّكين بالعروة الوثقى؛ بل هم من الهالكين إن ماتوا على شركهم، وإن تلفّظوا بلا إله إلا الله مئات بل آلاف المرات"[٣]

يقولون: إن "شر البليّة ما يُضحك"[٤] لكنى لا أجد في نفسي القدرة على الضحك من مرارة هذه البلية التي تستحق أن نبكى معها دما!! إن هذه الترهات تنم عن مدى الحقد والعداوة التي

---

(١) يقول ابن تيمية عنه: "هذا الملك كافر مشرك من أعظم المشركين كفرا وفسادا وعدوانا من جنس بخت نصر وأمثاله" (مجموع الفتاوى: لابن تيمية، جـ٢٨، صـ٥٢١، ط: مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م)

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) كشف شبهات المجادلين عن عساكر الشرك وأنصار القوانين: للمقدسي، صـ ٢١، مرجع سابق.

(٤) هو: "مثل يضرب للشدة أو المصيبة تأتي في غير حينها وعلى غير وجهها فيتعجب منها المبتلى بها ويضحك" (معجم اللغة العربية المعاصرة: للدكتور أحمد مختار عبد الحميد، جـ١، صـ٢٤٦، ط: عالم الكتب، ط:١، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م)

أكنوها في صدورهم تجاه رجال القوات المسلحة والشرطة المصرية، ولعل السر في ذلك هو وقوف هؤلاء البواسل حجر عثرة بل شوكة في أعناق العناصر التكفيرية.

سادسا: تكفير عموم البشر!

لم يكتف القوم بكل ما سبق بل نفثوا كل ما في صدورهم من سموم حاقدة فأعلنوها صريحة مدوية في جو السماء: "الشعوب العربية الآن كلها على الكفر إلا من ثبت إسلامه"[(١)] وبعد السؤال عن سر هذا الحكم الغاشم الظالم؛ كانت حجتهم: "أن أكثر الناس عقائدهم اليوم صوفية أو إرجائية أو شيعية أو شافعية أو حنفية أو مالكية داخل عليها الشرك"[(٢)]

وهذا هو الباعث الذي كان يدفع جماعة التكفير والهجرة[(٣)] إلى اعتزال البشر عزلة شعورية ومكانية، حيث كانوا "لا يصلون على الموتى إلا من كانوا يعلمون حاله، وأنه من الذين تجوز الصلاة عليه عندهم، ولا يشاركون أهلهم وذويهم أفراحهم وأحزانهم"[(٤)] بل كانوا "لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر لأن أكثر من ٩٠٪ من الناس كفار مرتدون"[(٥)] من الواضح أن هذه النسبة تمثل المخالفين لهم، أما القلة الباقية فهي الطائفة الناجية، والتي يتصدرونها

---

(١) داعش من النجدي إلى البغدادي: لفؤاد إبراهيم، صـ٢١١، ط: مركز أوال للدراسات والتوثيق، بيروت، ط:١، ٢٠١٥م.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) هي: "جماعة إسلامية غالية نهجت نهج الخوارج في التكفير بالمعصية، نشأت داخل السجون المصرية في بادئ الأمر، وبعد إطلاق سراح أفرادها، تبلورت أفكارها، وكثر أتباعها في صعيد مصر، وبين طلبة الجامعات خاصة" (لمزيد من التفاصيل يُنظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، جـ١، صـ٣٣٣، ، ط: دار الندوة العالمية، ط:٤، ١٤٢٠هـ)

(٤) التوقف والتبيّن: لمحمد سرور زين العابدين، صـ ٢١، ط: دار الجابية، لندن – بريطانيا، ط:٤، ١٤٣١هـ.

(٥) المرجع السابق، صـ ٢٢

حسب ظنهم، السؤال الآن: هل توقفت دائرة التكفير عند هذا الحد؟ إليكم المفاجأة التي تعمدت إرجاءها إلى نهاية المطلب.

سابعا: الأعجب من كل ما سبق أن الجماعات التكفيرية لم تتورع عن تكفير بعضها بعضا، والواقع خير شاهد ودليل!!

لقد "كانت داعش تعتقد أولاً في غيرهم من الخوارج كجبهة النصرة، أنهم عصاة إذا لم يبايعوهم، وأما إذا حملوا السلاح عليهم فإنهم يقاتلونهم، ثم صاروا الآن يكفرونهم ويدخلونهم في مسمى صحوات الردة"[١]

لاحظ! بدأت الاتهامات تُكال فيما بينهم بزعم العصيان، الأمر الذي دفعهم إلى التكفير، ثم الردة في نهاية المطاف! الأغرب من ذلك أن التنظيم الإرهابي الأبرز في وقتنا الراهن[٢] صار منقسما إلى فرق متعددة[٣] جميعهم يكفر بعضهم بعضا، وصدق الحق إذ يقول: "إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ"[٤]

هكذا أبان العرض السابق جانبا من مظاهر التكفير لدى الجماعات المتطرفة، والتي شنت حملتها التكفيرية ضد كل مخالفيها بدءا من الحكام والمحكومين، ومرورا برجال الجيش والشرطة المصرية، وانتهاء بتكفير البشر عن بكرة أبيهم، بل تكفير رفاقهم في التطرف

---

(١) بيان الضلال والخطأ الفاحش في الرضا والدفاع عن خوارج داعش: لمحمد إبراهيم المصري، صـ ٣٢، مرجع سابق.

(٢) تنظيم داعش الإرهابي؛ سبقت ترجمته؛ يُنظر صـ١١ من هذه الدراسة.

(٣) من الملاحظ في وقتنا الراهن: "أن داعش قد انقسموا إلى فرقتين؛ حازمية، وبنعلية، وكل شبهات الحازمية: كشف أصدرته بيانات، ومما فيها أختها، وأصدرت تكفر منهما واحدة للبنعلية: صدر ومما الكافرين، الجهمية دولة المأسورين في الإخوة الجهمية، ومناصرة البنعلية من الكثير معتزلة؛ وغيرها الحازمية العاذرية الحازمي، وهل تكفير في لائمي على الرد الهذيان" (الحرورية الأولون وداعش المعاصرون: لموسى الغنامي، صـ ٥١، ط: مركز ثبات للبحوث والدراسات، بدون ت)

(٤) سورة الأنعام، الآية ١٥٩

والإرهاب!! هذه الجملة من الترهات تدفعنا بالضرورة إلى دحض تلك الافتراءات بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة وذلك من خلال المطلب التالي.

المطلب الثالث: نقد التكفير وتصحيح المفهوم.

يطيب لي في هذا المطلب العودة إلى نصوص القرآن والسنة حيث المنبع الصافي والجواب الشافي للرد على كافة الافتراءات التي أثارتها الجماعات التكفيرية بمختلف مناهجها وأساليبها ولعل ذلك يتضح جليا من خلال الآتي:

أولا: لا يخفى على الجميع أن الباعث الرئيس في هزيمة المسلمين يوم أحد[١] هو عصيان بعض الصحابة لأوامر النبي ، وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم صراحة: "وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ"[٢]

أعد النظر مرة أخرى في كلمة "عصيتم" لا سيما إذا كان هذا العصيان سببا في قتل عشرات الصحابة والتمثيل بأجسادهم، بل كان سببا في كسر رباعية النبي ، ودخول حلقات المغفر[٣] في وجهه .

التساؤل هنا: بماذا حكم النبي على هؤلاء العصاة؟! هل انطلقت أحكام التكفير تترا في جو السماء؟! هل ثبت أن النبي حكم عليهم بالكفر كما فعلت الجماعات التكفيرية؟! هل ثبت أن النبي عاقبهم بسبب إخلالهم بالواجب المنوط بهم؟! إن الذي

---

(١) كانت هذه الغزوة "يوم السبت لسبع خلون من شوال، على رأس اثنين وثلاثين شهرا، واستخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم" (لمزيد من التفاصيل يُنظر المغازي: للواقدي، جـ١، صـ١٩٩، ط: دار الأعلمي – بيروت، ط:٣، ١٤٠٩–١٩٨٩)

(٢) سورة آل عمران، من آية ١٥٢

(٣) المغفر: "شبيه بحلق الدرع يجعل على الرأس يتقى به في الحرب" (للتفاصيل يُنظر السيرة النبوية: لابن هشام، جـ٢، صـ٨٠، ط: البابي الحلبي بمصر، ط:٢، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥م)

ثبت هو قول الله تعالى: "وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ"[١] ما هذا الحكم الصادر يا سادة؟! إنه العفو الكامل والصفح الشامل في حق من تسببوا في قتل عشرات الصحابة! إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثانيا: من المعلوم لدى القاصي والداني أن الفرار من المعركة يوم اللقاء جريمة كبرى وخيانة عظمى، تعاقب عليها المواثيق الدولية، وتحذر منها النصوص الشرعية، وحسبنا أن النبي ﷺ قال في شأنها: "اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ"[٢] وذكر منها: "التَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ"[٣] ومع هذا التحذير الشديد والوعد والوعيد أبان القرآن الكريم أن نفرا من الصحابة رضوان الله عليهم فروا من المعركة يوم حنين[٤] بنص القرآن: "وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ"[٥]

التساؤل هنا أيضا هل ثبت أن النبي ﷺ حكم بكفرهم أو أخبرنا بكفرهم؟ إن الذي أخبرنا به رسول الله ﷺ أن الله قد عفا عنهم بنص القرآن: "ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ"[٦] ماذا لو حدثت مثل هذه الواقعة مع الجماعات التكفيرية في

---

(١) سورة آل عمران، من آية ١٥٢

(٢) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} جـ٤، صـ١٠، حـ٢٧٦٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) حنين: "واد- ويقال ماء- بينه وبين مكة ثلاث ليال في قرب الطائف" (للتفاصيل يُنظر إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع: لأحمد بن علي بن عبد القادر تقي الدين المقريزي، جـ٢، صـ٨، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط:١، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م)

(٥) سورة التوبة، من آية ٢٥.

(٦) سورة الأنفال، الآية ٢٧

واقعنا المعاصر؟ ماذا تفعل داعش بجنودها إذا لاذوا بالفرار؟ قطعا العقوبات محققة والمشانق معلقة وأحكام التكفير على أهبة الاستعداد، وكيف لا وبطاقات الكفر توزع بالمجان فكيف تكون العقوبة لمن فر يوم الزحف؟!

ثالثا: إن النبي ' لم يمتنع فقط عن إطلاق أحكام التكفير بل كان يحذر من خطورة هذه الآفة تحذيرا شديدا، وحسبنا قوله ': "أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا"(١)

من هذا المنطلق كان الصحابة رضوان الله عليهم يتحرزون من التساهل في تكفير عموم الناس حتى ولو رفعوا السلاح، فعن أبي سفيان ¢ قال: "قلت لجابر بن عبد الله ¢: هل كنتم تقولون لأحد من أهل القبلة: كافر؟ قال: لا، قلت: وكنتم تقولون: مشرك؟ قال: معاذ الله"(٢) ولما "سئل علي ¢ عن أهل الجمل: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا, قيل: أمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا, قيل: فما هم؟ قال: إخواننا بغوا علينا"(٣)

تأمل! امتنع الصحابة عن تكفير من؟ امتنعوا عن تكفير من كفروهم! وسفكوا دماءهم! وأفسدوا عليهم دنياهم ودينهم، اكتفوا فقط بقولهم: إخواننا بغوا علينا! حتى رابطة الأخوة لم ينزعوها عنهم!!

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، جـ٨، صـ٢٦، حـ٦١٠٤، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) المعجم الأوسط: للطبراني، جـ٧، صـ٢٣٠، حـ٧٣٥٤، ط: دار الحرمين – القاهرة، بدون ت.

(٣) السنن الكبرى: للبيهقي، جـ٨، صـ٣٠٠، حـ ١٦٧١٣، مرجع سابق.

رابعا: في ضوء هذا المنهج العذب الصافي سار أيضا الأئمة الأعلام عليهم من الله سحائب الرحمة والرضوان، فقد سجل التاريخ للإمام الغزالي[(١)] ¬ مقولته الخالدة: "الخطأُ في تَرْك ألْف كافرٍ في الحياةِ أهونُ مِن الخطأِ في سَفْكِ محجَمةٍ مِن دَمِ مُسلمٍ"[(٢)] قطعا لن يسألك الله لماذا لم تكفِّر هذا الصنف من البشر بقدر ما سيسألك لماذا تساهلت في تكفير هؤلاء البشر؟!

ولعل هذا هو السر الذي دفع مؤسسة عريقة بقيمة وقامة الأزهر الشريف أن تنأى بنفسها وتتورع عن تكفير الجماعات التكفيرية المعاصرة، وأوكلت الأمر كله للقضاء ولا غرو؛ فإذا كنا نلقي باللائمة على صنيع هذه الجماعات التكفيرية؛ فمن باب أولى التورع عن الانزلاق في هذا المستنقع التكفيري بكل صوره وأشكاله.

وما أجمل ما قاله الإمام محمد عبده[(٣)] بهذا الصدد: "إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه؛ ويحتمل الإيمان من وجه واحد؛ حُمِلَ على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر"[(٤)] بيد أن الجماعات التكفيرية أبت إلا أن تسير عكس الاتجاه؛ فإذا كان الإيمان يُحتمل من ألف وجه؛ وكان الكفر يُحتمل من نصف وجه؛ حملوه على الكفر والارتداد!!

---

(١) هو: "أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، من أنفس كتبه إحياء علوم الدين، كانت ولادته سنة خمسين وأربعمائة، وتوفي سنة خمس وخمسمائة هجرية" (وفيات الأعيان: لابن خلكان، جـ٤، صـ٢١٦ وما بعدها، ط: دار صادر – بيروت، ١٩٠٠م)

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد: للإمام الغزالي، صـ٢١١، ط:١، ١٤١٥هـ.

(٣) هو: "محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني، مفتي الديار المصرية، ولد بمحافظة الغربية سنة ١٢٦٦هـ – ١٨٤٩م، تعلم بالأزهر، وتصوف وتفلسف، وكتب في الصحف، وتوفي بالقاهرة سنة ١٣٢٣هـ – ١٩٠٥م" (الأعلام: للزركلي، جـ٦، صـ٢٥٢، بتصرف يسير، ط: دار ابن حزم، بيروت، ط:٢، ١٤٢٢هـ)

(٤) مجلة المنار، مقال بعنوان: الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، للإمام محمد عبده، مجلد ٥، صـ٤٤١

خامسا: التساؤل الذي بات ملحا للغاية في هذا المقام: من المنوط بالفصل أحكام التكفير؟! هل نفتح الأبواب على مصراعيها لكل زاعق وناعق ولكل جاهل ومتعالم؟! لقد أتانا الجواب الشافي من المنهج الصافي حيث "سَمِعَ النَّبِيُّ ' قَوْمًا يَتَدَارَءُونَ[(١)]، فَقَالَ: إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا نَزَلَ كِتَابُ اللهِ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَلَا تُكَذِّبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ فَقُولُوا، وَمَا جَهِلْتُمْ، فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ"[(١)] ومن ثم فـ"لا يجوز لواعظ أو عالم أو جماعة أيا كانت أن تحكم على الناس بالكفر وإنما يكون ذلك لحكم القاضي أو المفتي لما لهما من علم بالأحكام الشرعية والإجراءات القضائية"[(٢)] وبناء عليه فليست الكيانات الإرهابية منوطة بالتكفير، وليست التيارات الوهابية منوطة بالتكفير، وليست الحركة القطبية أيضا منوطة بالتكفير، المنوط بالتكفير إذا جهتان لا ثالث لهما القضاء والإفتاء "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"[(٣)]

أكتفي بهذا القدر من هذه الأجوبة الكاشفة عن سوءات الجماعات المتطرفة بخصوص الأحكام التكفيرية التي أطلقتها في جو السماء بلا قيد ولا ضابط، وأعود مرة أخرى إلى البحث عن أخطر القضايا الفكرية لدى الجماعات التكفيرية وتحديدا القضية الثالثة التي تتجلى في المبحث القادم.

---

(١) مسند الإمام أحمد، جـ١١، صـ٣٥٤، حـ٦٧٤٢، من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، حديث صحيح.

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح: للأستاذ الدكتور عبد الله مبروك النجار، وآخرون، صـ ٢٦، مرجع سابق.

(٣) سورة النحل، من آية ٤٣

المبحث الثالث: قضية الـــولاء والبــــراء ونقدها

يعد الولاء والبراء من أبرز المعتقدات الدينية التي آمنت بها الجماعات التكفيرية والتي اتخذت منها قاعدة أساسية لتبرير عنفها وتطرفها وإرهابها، فما هو مفهوم الولاء والبراء؟ ومن أول من نادى به؟ وما هي مظاهره لدى الجماعات التكفيرية؟ وما هي سبل مواجهة هذه الأفكار المنحرفة؟ الإجابة على هذه التساؤلات وغيرها هي محط أنظارنا بمشيئة الله تعالى في هذا المبحث وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: التعريف بالولاء والبراء.

لكشف اللثام عن حقيقة الولاء والبراء وبواكير ظهوره إليكم ما يلي:

أولا: التعريف اللغوي:

١- الولاء في اللغة: "مصدر المَوْلى، والموالي: بنو العمّ"[(١)] "الولي: القرب والدنو"[(٢)] "والولاية: النصرة. يقال: هم على ولاية، أي مجتمعون في النصرة"[(٣)]

٢- أما بالنسبة للبراء فهو: "التَّبَاعُدُ مِنَ الشَّيْءِ وَمُزَايَلَتُهُ"[(٤)] "بَرِئَ: مِنْهُ وَمِنَ الدَّيْنِ وَالْعَيْبِ سَلِمَ وَبَرِئَ مِنَ الْمَرَضِ"[(٥)]

من خلال هذه التعريفات اللغوية بات واضحا أن كلمتي الولاء والبراء صنوان لا يجتمعان، ولا غرو فالولاء يشير إلى الأقرباء، والبراء يشير إلى الأعداء.

---

(١) معجم العين: للفراهيدي، جـ٨، صـ٣٦٥، مادة ولي، مرجع سابق.

(٢) لسان العرب: لابن منظور، جـ١٥، صـ٤١١، مادة ولي، مرجع سابق.

(٣) الصحاح: للفارابي، جـ٦، صـ٢٥٣٠، مادة ولي، مرجع سابق.

(٤) مقاييس اللغة: للرازي، جـ١، صـ٢٣٦، مادة برأ، مرجع سابق.

(٥) مختار الصحاح: للرازي، صـ٣١، مادة برأ، مرجع سابق.

جدير بالذكر أن المعاجم اللغوية لم تختزل مصطلح الولاء في الإطار الديني، فقد يكون الولاء للأسرة، وقد يكون للعائلة، وقد يكون للمجتمع، وقد يكون للوطن، فهؤلاء جميعا يجب نصرتهم ومحبتهم والدفاع عنهم بكل ما أوتينا من قوة.

والبراء كذلك يمتد ليشمل كل من بادرنا بالعداء أيا كان جنسه أو دينه أو مذهبه، فهؤلاء أيضا يجب بغضهم وعداوتهم ومقاومتهم بكل ما أوتينا من قوة، هذا ما كشف عنه المعنى اللغوي، أما عن مفهوم الولاء والبراء من الناحية العقدية فقد تكفل العنصر التالي بإماطة اللثام عنه.

ثانيا: التعريف الاصطلاحي:

يُعرف الولاء والبراء عند القائلين به على النحو التالي: "الولاء في الله هو: محبة الله ونصرة دينه، ومحبة أوليائه ونصرتهم، والبراء هو: بغض أعداء الله ومجاهدتهم، وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول بأولياء الله، والفريق الثاني بأولياء الشيطان، قال تعالى:{اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}"(١)

هذا ما آمنت به التيارات الوهابية والجماعات التكفيرية بمختلف أشكالها وألوانها، اللافت للنظر هنا أن التعريف تغافل عن كافة المعاني اللغوية السابق ذكرها؛ وحصر الولاء في الرابطة الدينية، والبراء من كل مَن خالفوا هذا الدين محاربين كانوا أو مسالمين.

(١) الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف: لمحمد بن سعيد بن سالم القحطاني، صـ٤٣، ط: دار طيبة، الرياض – المملكة العربية السعودية، ط:١، بدون ت، والآية من سورة البقرة، ٢٥٧

الذي يعنينا في هذا المقام أن هذا المعتقد كان باعثا رئيسا لإصدار العديد من الفتاوى الشاذة في واقعنا المعاصر، مثل الفتوى بحرمة تهنئة الأقباط في عيدهم! وغيرها من الدعاوى الضالة بيد أن أكثر ما أثار حفيظتي تلك الفتوى الوهابية الفريدة من نوعها والتي جاء فيها نصا: "السفر إلى بلاد الكفر لا يجوز؛ لأن فيه مخاطر على العقيدة والأخلاق ومخالطة للكفار وإقامة بين أظهرهم، لكن إذا دعت حاجة ضرورية وغرض صحيح للسفر لبلادهم؛ كالسفر لعلاج مرض لا يتوفر إلا ببلادهم...فهذه أغراض صحيحة يجوز السفر من أجلها"[١]

حتى وإن توفرت تلك الضرورة من وجهة نظرهم؛ فقد وضعوا شروطا صارمة وقواعد مشددة للمسافر إلى بلاد الغرب، من ضمنها "أَن يكون مضمرا لعداوة الكافرين وبغضهم مبتعدا عَن موالاتهم ومحبتهم فَإِن موالاتهم ومحبتهم مما ينافي الإيمان"[٢]

فلك أن تتصور أن مريضا ذهب للعلاج بإحدى المصحات الغربية، وهو يضمر في نفسه العداوة للفريق الطبي المعالج، ويضيق صدره من طاقم التمريض، ويُكِن في سريرته البغضاء لعمال المستشفى، هل يمكن لهذا المريض بتلك العقلية المتحجرة والقلب المريض أن يمتثل للشفاء؟! إنها عقيدة الولاء والبراء يا سادة!!

ثالثا: بواكير الظهور.

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام: لأبي عاصم الشحات شعبان محمود البركاتي المصري، صـ٢٩، ط: دار الدعوة الإسلامية، ط:١، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م.

(٢) فتاوى مهمة لعموم الأمة: للشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، تحقيق: إبراهيم الفارس، صـ١٣٤، ط: دار العاصمة – الرياض، ط:١، ١٤١٣هـ.

إن المتتبع لباكورة الولاء والبراء يُلاحظ أن أول من نادى به هم فرقة الأزارقة(١) أشد فرق الخوارج تطرفا، يقول الإمام الشهرستاني(٢) حكاية عن إمامهم نافع بن الأزرق "هو أول من أظهر البراءة من القعدة عن القتال وإن كان موافقا له على دينه، وأكفر من لم يهاجر إليه"(٣) واتبعته في ذلك أيضا فرقة الباطنية(٤) التي فسرت الطهور بـ"التبرؤ من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام"(٥)

بعد الاطلاع على بواكير ظهور الولاء والبراء بالشكل الذي صورته الجماعات التكفيرية يُلاحظ ما يلي:

١- البيئة التي ظهر فيها المصطلح كفيلة بإثارة الشكوك والعديد من علامات الاستفهام حول هذا المعتقد.

٢- من الملاحظ أيضا هذا التشابه العجيب بين الجماعات التكفيرية والتيارات

---

(١) الأزارقة هم "أصعب الخوارج وأشرهم فعلا وأسوأهم حالا فسُموا الأزارقة بنافع بن الأزرق" (لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني، جـ٨، صـ٢٤٦، ط: دار البشائر الإسلامية، ط:١، ٢٠٠٢م)

(٢) هو: "أبو الفتح محمد بن أبي القاسم الشهرستاني المتكلم على مذهب الأشعري؛ كانت ولادته سنة سبع وستين وأربعمائة بشهرستان خراسان؛ وتوفي بها أيضا سنة ثمان وأربعين وخمسمائة" (وفيات الأعيان: لابن خلكان، جـ٤، صـ٢٧٣، مرجع سابق)

(٣) الملل والنحل: للشهرستاني، جـ١، صـ١٢١، مرجع سابق.

(٤) هي فرقة تعتقد أن: "لظواهر الآيات والأحاديث بواطن تجري مجرى اللب من القشر، واحتجوا لكل آية ظهر وبطن، وأن من وقف على علم الباطن سقطت عنه التكاليف" (تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: للإمام الذهبي، جـ٢٠، صـ٢٣٤، مرجع سابق)

(٥) الاعتصام: لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، جـ٢، صـ٧٥، ط:١، ط: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

الوهابية حول فهم الولاء والبراء، وفي الوقت ذاته لا ننكر أن العناصر التكفيرية كانت أكثر تطرفا حين تبرأت من أبناء دينها بل من أبناء مذهبها!!

وعلى هذا المنهج السقيم والفكر العقيم سارت الجماعات التكفيرية المعاصرة، حيث تلقت هذه المفاهيم واعتمدتها ضمن الأصول الفكرية التي آمنت بها، فقد ذكروا صراحة: "أن معاداة أهل الباطل وإظهار البراءة منهم ومن آلهتهم الزائفة وأديانهم الباطلة وقوانينهم العفنة أصل عظيم، وركن وثيق في دعوة الأنبياء والمرسلين وهو كما عرفت شرع محكم يرتكز على أصل دين الإسلام وقاعدته فلو اجتمع أهل الأرض جميعا لأجل رده وإبطاله لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا"(١)

هكذا كشفت الجماعات التكفيرية عن ولائها وإيمانها بالولاء والبراء وجعلته ركنا ركينا وأصلا أصيلا من أركان هذا الدين وأصوله، فزعموا أن أهل الأرض لو اجتمعوا جميعا عن بكرة أبيهم لزعزعة هذا المعتقد ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، الأمر الذي يدفعنا إلى ضرورة البحث عن أشكال ومظاهر الولاء والبراء عند القائلين به من خلال المطلب التالي.

المطلب الثاني: مظاهر الولاء والبراء.

إذا كانت التيارات الوهابية اختزلت الولاء والبراء في رابطة الأخوة الدينية فإن الجماعات التكفيرية أتت بالعجائب والغرائب؛ حيث تبرأت من كل مخالفيها، وإليكم الدلائل القاطعة والبراهين الساطعة:

أولا: لعل أكثر ما يبرز تصور العناصر التكفيرية للولاء والبراء تلك الرسائل التي أطلقتها، والتي جاء فيها: "إلى الطواغيت في كل زمان ومكان، إلى الطواغيت

---

(١) ملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين وأساليب الطغاة في تمييعها وصرف الدعاة عنها: لأبي محمد عاصم المقدسي، صـ ٥٦، بدون ط.

حكاما وأمراء وقياصرة وأكاسرة وفراعنة وملوكا، إلى سدنتهم وعلمائهم المضلين، إلى أوليائهم وجيوشهم وشرطتهم وأجهزة مخابراتهم وحرسهم إلى هؤلاء جميعا نقول: إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله"[١]

من خلال القراءة المتأنية لهذه الرسائل التكفيرية يتضح بجلاء أن الجماعات التكفيرية لم تفسر الولاء والبراء بنصرة المؤمنين وعداوة الكافرين كما فعلت الوهابية؛ بل تمادت في غيها وضلالها وأسقطت هذا المعتقد على الحكام، والأمراء، والوزراء، والعلماء، والأجهزة الأمنية، والقوانين العصرية، بل أعلنت عداوتها وبراءتها من كل ما سواها حتى كادت تعادي نفسها!!! لاحظ أن جميع الطوائف التي كفرتها في المبحث السابق هي ذات الطوائف التي تبرأت منها في هذا المبحث باعتبارهم في زمرة المرتدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم!

ثانيا: إذا كانت الجماعات التكفيرية تفسر عقيدة البراء بعداوة كل مخالفيها كما بينا؛ فكيف تفسر إذا عقيدة الولاء؟ من الذي تبقى من البشر ليدينون له بالولاء؟

من أغرب أفكار هذه الجماعات المتطرفة أنهم لا يقدمون واجب الطاعة والولاء إلا لقادتهم وجماعتهم، فـ"لا يُزوِّجون ولا يتزوجون من غيرهم، ولا يأكلون ذبيحة إلا إذا كان الذابح منهم وإذا قدمت لهم طعاماً لا يأكلونه"[٢]

لا أخفي أن هذا المعتقد توقفت عنده كثيرا لتعارضه الصارخ مع نصوص القرآن الصريحة التي أباحت لنا طعام أهل الكتاب وأباحت لهم طعامنا بنص الآية: "الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ"[٣]

---

(١) المرجع السابق، صـ ٢

(٢) التوقف والتبيّن: لمحمد سرور زين العابدين، صـ ٦٦، مرجع سابق.

(٣) سورة المائدة، من آية ٥

ولا يخامرنا أدنى شك أن أهل الكتاب من المخالفين لنا في الدين، فكيف تجرأت تلك الجماعات المتطرفة وضربت بهذه النصوص الظاهرة عُرض الحائط؟! بيد أنني تذكرت أننا لم نرتق في خيالاتهم إلى مرتبة الكفار الأصليين، وإنما في حكم المرتدين، ومن ثم فلا تحل لهم ذبائحنا! هذا لن تراه إلا في ضلالات وجهالات السادة التكفيريين.

ثالثا: في إطار إيمانها بالولاء والبراء كشفت الجماعات التكفيرية عن وجهها القبيح حيث حرضت أتباعها على عداوة المخالفين جهرا وفي الوقت ذاته أمرتهم بالتخطيط للانتقام منهم سرا!!

تأمل هذه الفتوى: "السرية يجب أن توضع في مكانها الحقيقي؛ وهي سرية التخطيط والإعداد، أما الكفر بالطواغيت ومناهجهم و آلهتهم الباطلة فهذه لا تدخل في السرية بل من علنية الدعوة فينبغي إعلانها منذ أول الطريق...وخلاصة الأمر أنها: سرية في الإعداد والتخطيط علنية في الدعوة والتبليغ"[(١)]

هكذا جاء اعتراضهم، يدبرون المخططات والمؤامرات سرا كخفافيش الظلام! وفي والوقت ذاته يتوهمون أنهم يتعبدون إلى الله بإظهار العداوة جهرا، إلا أن الله رد عليهم عبادتهم فقال: "لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا"[(٢)] نعم يسمع ما يجهرون به من عداوة حاقدة، ويعلم ما يخفونه سرا من مخططات ماكرة!

---

(١) ملة إبراهيم: لأبي محمد عاصم المقدسي، صـ ٣١، مرجع سابق.

(٢) سورة النساء، الآية ١٤٨

رابعا: ليس الغريب فقط في عداوة الجماعات التكفيرية للمخالفين؛ بل الأغرب هو قولهم الباطل وزعمهم الحاقد أن هذا المعتقد بهذا الشكل المنحرف جاء استجابة لملة إبراهيم ‘!

لقد قالوا صراحة: "فملة إبراهيم ودعوة الأنبياء والمرسلين تستلزم إظهار الكفر بهذه المعبودات كلها وإبداء العداوة والبغضاء لها"[١]

إن القوم يظنون أنهم يتعبدون إلى الله بهذا الهزل والهراء والكذب والافتراء! هل حقا حرضتهم الحنيفية السمحة على عداوة جموع البشر؟ هل أمرهم سيدنا إبراهيم ‘ بذلك؟! إن نبي الله إبراهيم ‘ كان أنموذجا فريدا ومثالا خالدا في الحلم والأناة بنص القرآن: "إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ"[٢] لم يحثنا على الإطلاق إلى إعلان حرب مفتوحة على كل سكان المعمورة بدعوى الولاء والبراء، فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا؟! لقد جمعوا جهلا وكذبا وزورا.

كانت هذه أبرز مظاهر الولاء والبراء لدى الجماعات التكفيرية، ولم يبق سوى وضع هذا المعتقد في ميزان الشرع الحكيم كما يتجلى في المطلب التالي.

المطلب الثالث: الفهم الصحيح للولاء والبراء.

من المعلوم يقينا أن الفهم المغلوط لقضية الولاء والبراء من جانب الجماعات التكفيرية والتيارات الوهابية يتصادم تصادما واضحا بل فاضحا مع نصوص القرآن الصريحة، ونصوص السنة النبوية الصحيحة، ويتضح ذلك جليا من خلال النقاط الآتية:

---

(١) ملة إبراهيم: لأبي محمد عاصم المقدسي، صـ ٢٣، مرجع سابق.

(٢) سورة هود، الآية ٧٥

أولا: إذا كانت الجماعات التكفيرية دفعتنا مرارا إلى عداوة أكثر البشر بدعوى مخالفتهم لنا في الدين فإن الله تعالى أمرنا ببر هؤلاء البشر طالما كانوا مسالمين.

اقرأ إن شئت قول الله تعالى: "لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ"[١]

هاتان الآيتان كفيلتان برد كافة الشبهات التي أثارتها الجماعات المتطرفة حول قضية الولاء والبراء، بل كفيلتان بوأدها في مهدها واجتثاثها من جذورها! ولا غرو فالله تعالى أمرنا صراحة ببرهم والكيانات الإرهابية مازالت تطالب بعداوتهم؛ فلمن نقدم واجب الطاعة والولاء إذا؟ قولا واحدا رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبسيدنا محمد ﷺ نبيا ورسولا.

أعد النظر مرة أخرى في الآيتين الكريمتين لا سيما الثانية منهما؛ من الملاحظ أن فيها نهي واضح عن الولاء، لكن النهي هنا عن الولاء لمن؟ عن الذين بادرونا بالعداء وقاتلونا في الدين بنص الآية: "قاتلوكم في الدين" إن عداوة هذا الصنف من البشر لا ينتطح فيه عنزان بل ترتضيه الفطرة البشرية فضلا عن الأديان السماوية، أما المسالمين منهم فقد نهانا الله عن عداوتهم؛ بل أمرنا ببرهم، والإحسان إليهم، ولعل المعنى يزداد وضوحا في العنصر التالي.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية ٨، ٩

ثانيا: امتداد لهذا الفهم الصحيح لقضية الولاء والبراء أمرنا الله تعالى صراحة بالإحسان إلى البشر جميعا، قال تعالى: "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا"(١) تأمل! هذا الإحسان لمن؟ لعموم الناس لا فرق في ذلك بين المسلمين والمخالفين لهم في الدين، ليست هناك تفرقة على أساس الجنس أو اللون أو العرق أو الدين، حتى إذا تطلب الأمر لعقد المناظرات والمناقشات مع هؤلاء المخالفين؛ فالآية واضحة كالشمس في ضحاها: "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"(٢) تخيل! في وقت احتدام الجدال يتجلى الأمر الإلهي بطلب الإحسان! فكيف بأوقات الرخاء والسلام؟ ثم كيف يستقيم عقلا البراء منهم مع الإحسان إليهم؟! كيف يجتمع الضدان في آن واحد؟!

من جانب آخر إذا كان الإحسان بات واجبا مع المخالفين؛ فكيف بالإحسان مع المؤمنين الموحدين؟ لا شك أنه في حق الأخير أشد وجوبا، بيد أن الجماعات التكفيرية ضربت بكل هذه النصوص عرض الحائط؛ وأعلنت عداوتها الصريحة لجميع البشر بمختلف أشكالهم وألوانهم، لا سيما الموحدين منهم.

ثالثا: إن سماحة الإسلام مع المخالفين لم تنته عند حدود الإحسان إليهم بل تعدته إلى حد لا يمكن أن تتصوره أو تستوعبه عقليات الجماعات المتطرفة، حيث سمحت الشريعة الإسلامية بالزواج من أهل الكتاب دون أدنى ممانعة وذلك بنص القرآن: "وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ"(٣)

---

(١) سورة البقرة، من آية ٨٣

(٢) سورة العنكبوت، من آية ٤٦

(٣) سورة المائدة، من آية ٥

وعلى هذا إجماع أهل العلم قاطبة، يقول ابن قدامة[١]: "وحرائر نساء أهل الكتاب وذبائحهم حلال للمسلمين، ليس بين أهل العلم بحمد الله اختلاف في حل حرائر نساء أهل الكتاب...وبه قال سائر أهل العلم"[٢]

ومن العلوم لدى الجميع أن هذا الزواج الحلال بكل المقاييس الشرعية يتطلب من الزوج بلا شك بذل كل معاني الحب والوفاء والولاء لهذا البيت الجديد، ولا غرو فالعلاقات الزوجية قائمة على أساس المودة والرحمة في المقام الأول وذلك بنص القرآن أيضا: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[٣]

بعد كل هذه النصوص الشرعية السالف ذكرها كيف تجرأت الجماعات التكفيرية وجعلت عداوة المخالفين أصلا من أصول الدين؟ كيف تجتمع المودة والعداوة معا في آن واحد؟! كيف يستقيم الولاء والبراء معا لشخص واحد؟! ما هذه المغالطات النقلية والتناقضات العقلية التي لا يستوعبها من له مسكة من عقل؟!

رابعا: هذا الزواج الذي أقرته الشريعة الإسلامية بين المسلمين وأهل الكتاب سيترتب عليه بلا شك نفر من الأبناء، فكيف تعاملت الشريعة مع هذه الأم الكتابية؟ هل طالبت الأبناء بعقوقها بدعوى الولاء والبراء؟

---

(١) هو: "أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، صاحب المغني، مولده بجماعيل من عمل نابلس؛ سنة إحدى وأربعين وخمس مائة، وتوفي يوم الفطر سنة عشرين وست مائة هجرية" (سير أعلام النبلاء: للذهبي، جـ١٦، صـ١٤٩ وما بعدها، ط: مؤسسة الرسالة، ط:٣، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥م)

(٢) المغني: لابن قدامة، جـ٧، صـ١٢٩، ط: مكتبة القاهرة ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م

(٣) سورة الروم، الآية ٢١

إن الذي تولى الإجابة على هذا التساؤل هو رسول الله ‘، حيث قالت السيدة أسماء ~: "قَدِمَتْ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ، فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ وَمُدَّتِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا النَّبِيَّ ‘، مَعَ ابْنِهَا، فَاسْتَفْتَيْتُ النَّبِيَّ ‘ فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ وَهِيَ رَاغِبَةٌ؟ أَفَأَصِلُهَا؟ قَالَ: نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ"[(١)] تأمل! الأم في هذا التوقيت كانت على دين المشركين ولا يخامرنا أدنى شك أنهم أشد مخالفة من أهل الكتاب؛ ومع ذلك أمر النبي ‘ بحسن صلتها.

والحقيقة أن النصوص الواردة في هذا الباب يصعب حصرها مما دفع السادة الفقهاء الإفتاء بأنه: "يجب على الولد المسلم نفقة أبويه الذميين لقوله تعالى: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}[(٢)] وليس من المصاحبة بالمعروف أن يتقلب في نعم الله ويدعهما يموتان جوعا"[(٣)] فهل ما زالت الجماعات المتطرفة تصر على اعتقادها بعداوة ما عداها بزعم الولاء والبراء؟ مال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا؟

خامسا: استمرار لما سبق فليست الأم الكتابية وحدها هي التي نشأت جراء هذا الزواج الشرعي؛ بل هناك قرابات متشعبة ومتفرقة من الأصول والفروع والحواشي، فما الضوابط التي وضعتها الشريعة الإسلامية في التعامل مع تلك الأرحام؟ هل ثبت أن الإسلام فرّق بين أرحام المسلمين وأرحام أهل الكتاب؟

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج، جـ٨، صـ٤، حـ٥٩٧٩، مرجع سابق.

(٢) سورة لقمان، من آية ١٥

(٣) المبسوط: لمحمد بن أحمد بن أبي سهل السرخسي، جـ٥، صـ٢٢٦، ط: دار المعرفة – بيروت، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.

إن الوارد في هذا الباب ما أخبرنا به النبي ‘ فيما يبلغ عن رب العزة: "قَالَ اللَّهُ: أَنَا اللَّهُ، وَأَنَا الرَّحْمَنُ، خَلَقْتُ الرَّحِمَ وَشَقَقْتُ لَهَا مِنْ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا بَتَتُّهُ"(١) نعم من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله، يقول الإمام ابن حجر فيما نقله عن الإمام الخطابي(٢): "الرحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة"(٣) إنه الاندماج الكامل والانصهار التام بين المسلمين والمخالفين لهم في الدين، أعتقد أن هذه الصورة البديعة التي رسمها الإسلام بأحرف من نور؛ تتهاوى أمامها كل دعاوى الجماعات المتطرفة حول قضية الولاء والبراء.

أكتفي بهذا القدر من بيان موقف الإسلام بهذا الصدد، وأنتقل إلى مبحث آخر حيث القضية الرابعة من القضايا الفكرية لدى الجماعات التكفيرية.

---

(١) سنن الترمذي: جـ٤، صـ٣١٥، حـ١٩٠٤، من حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(٢) هو: "أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي؛ كان فقيهاً أديباً محدثاً له التصانيف البديعة منها أعلام السنن في شرح البخاري، وكانت وفاته سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة بمدينة بست، وهي مدينة من بلاد كابل" (وفيات الأعيان: لابن خلكان، جـ٢، صـ٢١٥، مرجع سابق)

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، جـ٥، صـ٢٣٤، ط: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩هـ.

المبحث الرابع: قضية الجهـــــــاد ونقدها

لم تكتف الجماعات التكفيرية بتكفير وعداوة كل مخالفيها بل حرضت على قتالهم جميعا بدعوى فرضية الجهاد! الأمر الذي دفعني إلى البحث عن مصطلح الجهاد لتحريره في معاجم اللغة والاصطلاح، والبحث عن حقيقته لدى الجماعات المتطرفة، إضافة إلى عرض جانب من الممارسات الوحشية التي تقوم بها الجماعات التكفيرية في وقتنا الراهن، فضلا عن رؤية الجهاد في ميزان الشرع الحنيف، ووضعه في نصابه الصحيح، بعد هذا الإجمال إليكم التفصيل والبيان، وذلك على النحو التالي:

تحرير مصطلح الجهاد.

جاء في معاجم اللغة: "الجَهْدُ والجُهْدُ: الطاقة، وقيل: الجَهْدُ: المشقة"(١) "أَجهَد دابته إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها"(٢) "والجهاد: المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء. وفي حديث الحسن: لَا يَجْهَدُ الرجل ماله ثم يقعد يسأل الناس؛ قال النضر: قوله لا يجهد ماله أي يعطيه ويفرقه جميعه هاهنا وهاهنا"(٣)

بعد هذا البيان اللغوي ظهر منذ الوهلة الأولى أن الجهاد يُطلق على إنفاق الأموال، والدعوة باللسان، فضلا عن القتال في سبيل الله، وهذا ما يكشف عنه المعنى الشرعي بوضوح.

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم: لابن سيده، جـ٤، صـ١٥٣، مادة: جهد، مرجع سابق.

(٢) تاج العروس: للزبيدي، جـ٧، صـ٥٣٩، مادة جهد، مرجع سابق.

(٣) لسان العرب: لابن منظور، جـ٣، صـ١٣٥، مادة جهد، مرجع سابق.

يُعرف الجهاد شرعا بأنه: "بذل الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله ¸ بالنفس والمال واللسان، أو غير ذلك، أو المبالغة في ذلك"[١]

من مجموع التعريفات السابقة لمصطلح الجهاد بات واضحا هذا الانسجام والتناغم الواضح بين المعنى اللغوي والتعريف الشرعي، حيث أشار كلاهما إلى الجهاد بالمال للدلالة على المبالغة في الإنفاق، والجهاد باللسان إشارة إلى الدعوة إلى الله، والجهاد بالنفس إشارة إلى إزهاق الأرواح في سبيل الله تعالى عند هجوم الأعداء، بيد أن الجماعات التكفيرية ضربت بكل هذه الأنواع عُرض الحائط؛ وحصرت الجهاد في هذا النوع الأخير، ولم تكتف بذلك بل حرفته وبدلته وأسقطته على قتال الموحدين! ويتضح ذلك بجلاء من خلال المطلب التالي.

المطلب الأول: الدعوة إلى جهاد الطواغيت.

من الواضح أن كافة الطوائف التي كفرتها الجماعات المتطرفة وتبرأت منها في المبحثين السابقين قامت بإعلان الجهاد ضدها في هذا المبحث، ويتضح ذلك جليا من خلال ما يلي:

أولا: اعتادت الجماعات التكفيرية أن تصب لعناتها دائما على الحكام والأمراء بزعم ارتدادهم عن الدين حيث جاء في نصوصهم: "واجب على المسلمين أن يرفعوا السيوف في وجوه القادة الذين يحجبون الحق ويظهرون الباطل وإلا لن يصل الحق إلى قلوب الناس"[٢]

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لعلاء الدين أبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي، جـ٧، صـ٩٧، ط: دار الكتب العلمية، ط:٢، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م.

(٢) الفريضة الغائبة: لمحمد عبد السلام فرج، صـ ٢٩، مرجع سابق.

هكذا بات الجهاد في عيون الجماعات التكفيرية من واجبات هذا الدين وأصوله، لكن جهاد من؟ هنا الإشكال؛ الجهاد الواجب لديهم ضد من أمرنا الله بطاعتهم في المنشط والمكره، والعسر واليسر، إلا أن أكثر ما أثار اهتمامي في هذا النص السالف أمران:

١- الزعم بأن هذا الجهاد يهدف إلى إيصال الحق إلى الناس! أي حق هذا؟! أليست هذه دعوة إلى إثارة القلائل في البلاد الآمنة؟! إن ثورات الربيع العربي وما صاحبها من برك الدماء تكفلت بالرد على هذا السؤال.

٢- الآلة التي طالبوا باستخدامها في الثورة على الحكام دليل فاضح على اختطافهم للنصوص دون فهم معناها وإسقاطها على حكام العصر، وكيف لا؟ وقد انتهت فترة صلاحية تلك الآلات منذ عشرات العقود.

ثانيا: إذا كانت الجماعات التكفيرية تؤمن بفرضية الجهاد ضد الحكام؛ فيا ترى ما نوع هذه الفرضية؟ أهي فرض عين أم فرض كفاية؟ وهل يجب على الفور أم على التراخي؟ لقد أجابت الجماعات التكفيرية على تلك التساؤلات بكل وضوح فقالت: "وبالنسبة للأقطار الإسلامية فإن العدو يقيم في ديارهم بل أصبح العدو يمتلك زمام الأمور وذلك العدو مع هؤلاء الحكام الذين انتزعوا قيادة المسلمين ومن هنا فجهادهم فرض عين، هذا بالإضافة إلى أن الجهاد الإسلامي اليوم يحتاج إلى قطرة عرق كل مسلم، واعلم أنه إذا كان الجهاد فرض عين فليس هناك استئذان للوالدين في الخروج للجهاد كما قال الفقهاء، فمثله كمثل الصلاة والصوم"(١)

لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ إن جهاد الحكام بات في عرف الجماعات التكفيرية من ضروريات الدين التي لم تعد تحتمل الإرجاء والتأجيل، ولذا كان

---

(١) المرجع السابق، صـ ٣٤

إلحاحهم المستميت بدعوة الشباب إلى قتال الحكام دون استئذان الوالدين! بل الأعجب هو قولهم الباطل وزعمهم الحاقد أن هذا الهراء من فتاوى السادة الفقهاء! أحقا أفتى الفقهاء بالفرضية العينية للجهاد أو حتى الكفائية في هذا الصدد؟ هل هناك عاقل في الدنيا فضلا عن فقيه أفتى بدفع الشباب إلى القتال في هذا المقام دون استئذان الوالدين؟ لا يخفى على القاصي والداني ما في هذه الفتاوى الفاسدة والدعاوى الباطلة من تدليس وتلبيس على البشر.

ثالثا: لم تنته الجماعات التكفيرية عند قولها بوجوب قتال الحكام؛ بل زعمت زورا وبهتانا أن قتالهم صار أوجب من قتال المحتل الصليبي! يقول أبو عمر البغدادي أمير منظمة دولة العراق الإسلامية: "نرى كفر وردة جميع حكام تلك الدول وجيوشها وقتالهم أوجب من قتال المحتل الصليبي"(١) وفي خطاب آخر يقول: "فوالله لقتل المرتد أحبُّ إليّ من مئة رأس صليبية، وقد علمتم قوة بأسنا وطول ذراعنا"(٢)

هكذا أعلنوها على مرأى ومسمع من الدنيا بأسرها؛ قتال الموحدين أوجب من قتال المحتلين! لقد أخرجوا كل ما في صدورهم من غل وحقد وحسد ضد الطبقات الحاكمة بمختلف مسمياتها، الأمر الذي يدفعنا دوما إلى التساؤل؛ ما سر هذا الحقد الدفين؟ أهو حقا من باب الوازع الديني والدافع الإيماني كما خدعت الجماعات التكفيرية أتباعها؟ إن المتأمل في الخلاف الدائر بين الجانبين يُلاحظ أن الباعث الرئيس لتلك العداوة يكمن في خصومة ثأرية لا علاقة لها

---

(١) داعش من النجدي إلى البغدادي: لفؤاد إبراهيم، صـ١٤١، مرجع سابق.

(٢) تنظيم القاعدة ومشروع الدولة الإسلامية: لسعيد حازم السويدي، صـ٤٥، مرجع سابق.

بالدين لا من قريب ولا من بعيد؛ بيد أن الجماعات التكفيرية تعمدت توظيف الدين باستمرار واستغلاله لعله يشفي صدور قوم حاقدين!

رابعا: استمرار لمظاهر العنف والإرهاب فإن الجماعات التكفيرية لم تتوقف عند هرائها بأن قتال الحكام أوجب من قتال المحتل الصليبي؛ بل زعمت أن قتال هؤلاء الحكام صار أوجب من قتال المحتل اليهودي!

إليكم هذه الفتوى العجيبة الغريبة الوحيدة الفريدة من نوعها في فتاوى الجهاد: "قتال العدو القريب أولى من قتال العدو البعيد"[١] لا شك أن الجميع سيتساءل من يا ترى هذا العدو الغريب وذاك العدو البعيد؟ استمع لقولهم: "أهل مصر على سبيل المثال عدوهم النظام الحاكم الكافر هناك، وأهل فلسطين عدوهم القريب هو الاحتلال"[٢]

من هذا المنطلق بات الجهاد ضد النظام الحاكم في مصر أوجب من قتال المحتل اليهودي بأرض فلسطين بدعوى العدو القريب والعدو البعيد! أعد النظر والتأمل مرة أخرى قتال مَن؟ أوجب من الجهاد ضد من؟! في عرف الجماعات التكفيرية وحدها قتال الموحدين أشد ضرورة من قتال من هم أشد الناس عداوة للمؤمنين!! بنص القرآن: "لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا"[٣] لا تعليق!

---

(١) الفريضة الغائبة: لمحمد عبد السلام فرج، صـ ٢٨، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) سورة المائدة، من آية ٨٢

خامسا: إن القول بفرضية الجهاد لدى الجماعات التكفيرية لم ينته عند الطبقة الحاكمة وحدها؛ بل تخطاها إلى الإفتاء بفرضيته ضد الحكومات والهيئات والمؤسسات بمختلف أشكالها وألوانها!

يقول أيمن الظواهري –الزعيم الحالي لتنظيم القاعدة– في هذا الصدد: "بادري يا أمتنا المسلمة للجهاد فإن الحكومات قد خانت، والهيئات قد تخاذلت، وهذا عصر جهاد الأمة، لا تنتظر أيها المسلم الحريص، على نصرة الإسلام إذن زعيم تنظيمك، ولا مفتيك القاعدين عن الجهاد، فإن من لم يجاهد لعقود في شبابه لن يجاهد بعد أن بلغ من الكبر عتيا"(١)

لقد تكفلت هذه الرسالة وحدها بفضح رموز الجماعات التكفيرية وكشف سوءاتها ولم لا؟! وقد فاح منها هذه الدعوة الهزلية للشباب بفناء أعمارهم في حروب ضارية لا جمل لهم فيها ولا ناقة! لقد أخبرنا النبي ' أن المرء سيُسأل أمام الله تعالى عن "عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ"(٢) فلعل التعيس حقا وقتئذ من أفنى عمره وضحى بزهرة شبابه في سبيل إرضاء الجماعات التكفيرية وكسب مودتها، ولا غرو فقد خسر الدارين معا.

سادسا: كان أمرا متوقعا أن تندرج الجيوش العربية والإسلامية ضمن قائمة المطلوبين لدى العناصر التكفيرية؛ إن لم يكونوا في صدارة القائمة، حيث جاءت فتواهم صريحة بهذا الصدد: "نرى وجوب قتال شرطة وجيش دولة الطاغوت

(١) الغرب والنفق المظلم، صـ ٢٠، من إصدارات مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي، ١٤٣١هـ – ٢٠١٠م.

(٢) سنن الترمذي، جـ٤، صـ١٩٠، حـ٢٤١٦، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه من حديث ابن مسعود.

والردة، وما انبثق عنهما من مسميات كحماية المنشآت النفطية وغيرها، ونرى وجوب هدم وإزالة أي مبنى أو مؤسسة تبين لنا أن الطاغوت سيتخذها مقرا له"[١] وفي الإطار ذاته يقول المتحدث الإعلامي باسم تنظيم داعش الإرهابي[٢]: "إن القول اليوم بكفر هذه الجيوش وردتها وخروجها من الدين، بل بوجوب قتالها، وفي مقدمتها الجيش المصري لهو القول الذي لا يصح في دين الله خلافه"[٣]

مصر التي عرفت التوحيد منذ فجر التاريخ! الجيش المصري الذي انتصر على أعدائه بهتاف التوحيد الله أكبر وهو صائم لم يسلم من تطرف الجماعات التكفيرية بزعم كفره وردته وحمايته للطواغيت!!

وعلى إثر هذه الفتاوى التكفيرية المضللة تنطلق العناصر التكفيرية كعادتها لملاحقة جنودنا البواسل من رجال الشرطة والقوات المسلحة المصرية وقتلهم غدرا وغيلة، وما يحدث في وقتنا الراهن على أرض سيناء الحبيبة خير شاهد ودليل، لقد قالها النبي ' بكل وضوح: "لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ"[٤] لك أن تتخيل يتسببون في انفطار قلوب الأمهات على فلذات أكبادهم ويسمون هذا الجُرم دينا!

---

(١) بيان الضلال والخطأ الفاحش: لمحمد إبراهيم المصري، صـ ٤٣، مرجع سابق.

(٢) هو: "أبو محمد العدناني؛ المتحدث الإعلامي باسم التنظيم، واسمه الحقيقي طه صبحي فلاحة، من قرية بنش، في ريف إدلب السورية" (داعش من النجدي إلى البغدادي: لفؤاد إبراهيم، صـ ١٣٨، مرجع سابق)

(٣) الحرورية الأولون وداعش المعاصرون: لموسى الغنامي، صـ ٣٧، مرجع سابق.

(٤) سنن الترمذي، جـ٣، صـ٦٨، حـ١٣٩٥، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال الترمذي: حديث صحيح.

سابعا: امتداد لهذا العبث الذي لم ينته بعد؛ لم تعُد الجماعات التكفيرية قادرة على إخفاء ما في صدورها تجاه مخالفيها أكثر من ذلك؛ فأبت إلا أن تعلنها حربا ضروسا على البشر جميعا؛ لا فرق في ذلك بين مدنيين وعسكريين!

تأمل هذه الفتوى: "الكفر يبيح الدم، ولا تقسيم عندنا للمدني والعسكري في حفظ الدم، وإنما الذي يعصم دم الإنسان هذه الكلمة العظيمة؛ لا إله إلا الله، فمن لم يقلها فدمه هدر لا وزن له سموه مدنيًّا أو سموه عسكريًّا"(١)

ولعلهم يستندون في هذه الفتوى على فهمهم المغلوط لحديث رسول الله ‘: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ"(٢)

وحسبنا في الرد على هذ الفهم المغلوط أن النبي ‘ قال في صدر الحديث: "أمرت أن أقاتل" ولم يقل "أقتل" ولا شك أن اللفظتين بينهما فرق كبير وبون بعيد "فأقتل تعني: ملاحقة الناس في عقر دارهم حتى يدخلوا في الإسلام قسرا، أما قاتل فعلى وزن أفاعل، وهي صيغة تقتضي المشاركة، ومعناه: أواجه عدوان الناس بالمثل"(٣) بيد أن الجماعات التكفيرية لم تلتفت لتلك الإشارات اللفظية ولم ترع لها انتباها بل عابت مرارا على العلماء الذين انشغلوا بالعلم وتخلفوا عن الجهاد

---

(١) مجموع رسائل وتوجيهات أسامة بن لادن، صـ ٤٠٠، مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، جـ٢، صـ١٠٥، حـ١٣٩٩، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) مفاهيم يجب أن تصحح: للأستاذ الدكتور عبد الله مبروك النجار، وآخرون، صـ ٤٢، مرجع سابق.

وقالوا: "لا يفتي قاعد لمجاهد"[١] فكانت النتيجة الطبيعية أمثال تلك الفتاوى التي أعلنت الحرب الضارية ضد الجموع البشرية عن بكرة أبيها!

ثامنا: الأعجب من جميع ما سبق؛ أن العناصر التكفيرية لم تكتف بإعلان الجهاد ضد مخالفيها فحسب؛ بل صرحت أيضا بضرورة الجهاد ضد رفاقها في العمل الجهادي؛ أَدَعُ المتحدث الإعلامي باسم تنظيم داعش الإرهابي[٢] يحدثنا عن ذلك بجلاء؛ حيث قال ما نصه: "إن لدينا جيوشا في العراق، وجيشا في الشام كالأسود الجياع، شرابهم الدماء، وأنيسهم الأشلاء، ولم يجدوا أشهى مما شربوا من دماء الصحوات"[٣]

إذا كان الهدف الرئيس من مشروعية الجهاد في الإسلام هو حماية الدعوة الإسلامية من غارات المعتدين فإن الجهاد لدى الجماعات التكفيرية هو هدف في ذاته؛ لعله يشف نفوسهم المتعطشة لسفك الدماء، وتقطيع الأشلاء؛ لكن أتدري أيُ دماء هذه وأي أشلاء تلك؟ إنها دماء أقرانهم في ميدان الجهاد! ألا لعنة الله على الظالمين!

كانت هذه أبرز الطوائف المستهدفة من جانب الجماعات التكفيرية في واقعنا المعاصر، وقد بات واضحا كيف أعلنت تلك الجماعات المتطرفة الحرب الضروس ضد كل مخالفيها؛ بدءا من الحكام والمحكومين، ومرورا بالمدنيين والعسكريين، وانتهاء برفاقهم المجاهدين! الأمر الذي يدفعني إلى مزيد من البحث حول الممارسات الوحشية التي تمارسها الكيانات الإرهابية في وقتنا الراهن وذلك من خلال المطلب التالي.

---

(١) تنظيم القاعدة ومشروع الدولة الإسلامية: لسعيد حازم السويدي، صـ ١١٨، مرجع سابق.

(٢) هو: "أبو محمد العدناني" سبقت ترجمته، يُنظر صـ٣٧ من هذه الدراسة.

(٣) يقصدون بالصحوات جميع المجاهدين بلا استثناء، وللاطلاع على هذه الفتوى يُنظر الحرورية الأولون وداعش المعاصرون: لموسى الغنامي، صـ ٤١، ٤٢، مرجع سابق.

المطلب الثاني: الممارسات المتطرفة للجماعات التكفيرية.

يتمتع الجهاد لدى الجماعات التكفيرية بطبيعة خاصة وأيدولوجية دموية مختلفة عن كافة إدارات التوحش في العالم المعاصر؛ حيث قطع رءوس الأبرياء، وحرق أجساد الأحياء، وبقر بطون النساء، وهتك أعراض الشرفاء، وغيرها من الممارسات الوحشية التي يندى لها الجبين وتنفطر لها الأكباد!

العجيب في الأمر أن تلك الجرائم جاءت استجابة لنداء الساسة والقادة داخل الكيانات الإرهابية، حيث تتردد الأسئلة بين الفينة والأخرى عن سياسة التعامل مع المخالف؟ فجاءت الإجابة الصادمة: "ارضخ رأسه بحجر، أو انحره بسكين، أو ادهسه بسيارتك أو ارمه من شاهق، أو اكتم أنفاسه، أو دس له السم؛ فلا تعجز أو تهن"(١)

إذاً القضية لا علاقة لها بالجهاد الشرعي لا من قريب ولا من بعيد؛ بل هي رغبة جامحة في الانتقام من قوم يتعطشون للدماء؛ ويتضح ذلك جليا من خلال المشاهد الدموية التالية:

أولا: قطع رؤوس الأبرياء!

يُعد هذا الأسلوب الوحشي من أكثر المشاهد الدموية التي مارستها الكيانات الإرهابية في إطار سياستها الانتقامية مع المخالفين! والشواهد الدالة على ذلك يصعب حصرها في هذا المقام(٢) ولعل أبرزها المشهد المأساوي لأقباط مصر في ليبيا ٢٠١٥م، حيث "نشر تنظيم داعش الإرهابي مقاطع مصورة تحت

---

(١) المرجع السابق، صـ ٤٧

(٢) للتفاصيل يُنظر الدولة الإسلامية الجذور التوحش المستقبل: لعبد الباري عطوان، صـ١٤٧، ط: دار الساقي – لبنان، ط:١، ٢٠١٥م.

عنوان: رسالة موقعة بالدماء إلى أمة الصليب، ظهر فيها قيام أفراد التنظيم بأسر واحد وعشرين مصريا من الأقباط وذبحهم جميعا بدم بارد على مرأى ومسمع من الجميع! وكان ذلك على ساحل البحر المتوسط بولاية طرابلس، وقد انتهى الفيديو بمشاهد للبحر، وقد احمر لونه بالدماء"(١)

مشاهد يخجل اللسان بذكرها؛ ويعجز المرء عن وصفها؛ ولم تُشف صدورنا نحوها إلا بعد أن تكفل الجيش المصري بمواجهتها، ولا غرو فهم في رباط إلى يوم القيامة، بيد أن أكثر ما أثار حفيظتي هو اعتقاد الجماعات التكفيرية أن قطع رءوس الأبرياء عبادة، يتحببون بها إلى الله، وهذا ما يكشف عنه العنصر التالي بجلاء.

ثانيا: ذبح الإنسان عبادة داعشية!

لعل من الأفضل في هذا المقام أن ندع المجال للعناصر التكفيرية لكي تحدثنا بنفسها عن طبيعة هذه العبادة الفريدة من نوعها!

يقول أبو عبد الله المهاجر صاحب الكتاب الدموي الشهير مسائل من فقه الجهاد: "فعُلم أن ما في القتل بقطع الرأس من الغلظة والشدة أمر مقصود بل ومحبوب لله ورسوله ، رغم أنوف الكارهين لما أنزل الله"(٢)

لك أن تتخيل أن القوم يتحببون إلى الله بذبح العباد! لكن من أين أتوا بتلك الترهات؟ طائفتان في العالم فقط تبيحان ذبح الإنسان: الجماعات التكفيرية؛

---

(١) المصري اليوم، الصادرة يوم الاثنين بتاريخ ١٦ فبراير ٢٠١٥م، عدد٣٩٠٠، صـ٥، فتحية الدخاخنى. بتصرف يسير، خبر بعنوان: داعش يذبح ٢١ مصرياً، من إعداد

(٢) مسائل من فقه الجهاد: لأبي عبد الله المهاجر، صـ٢٧١، ط: مكتبة الهمة، ط:٢، ١٤٣٦هـ

والمتطرفون في الشريعة اليهودية! حيث "تمادى مؤلفو التلمود وكهانهم وحاخاماتهم وتركوا لمخيلتهم العنان في كيفية التقرب إلى الرب يهوه عن طريق تقديم أغلى القرابين، فتوصلوا إلى تقديم البشر قرابين لله!!...ومن هنا أباحوا ذبح الأطفال، وعمل فطائر عيد الفصح الممزوجة بدمائهم"[(١)] على النهج ذاته سارت الجماعات التكفيرية يتعبدون إلى الله بتقديم قرابين بشرية! ولم ينته الهراء عند هذا الحد؛ بل الذبح عندهم له مذاق خاص يتضح جليا من خلال العنصر التالي.

ثالثا: التلذذ بالذبح!

الأعجب من كل ما تقدم؛ أن القوم لم يكتفوا بذبح الأبرياء؛ بل طالبوا الذابحين بضرورة التلذذ أثناء الذبح!

قالوا هكذا ورب الكعبة: "عندما يُذبَحُ الإنسان، فلا ينبغي أن يُذبَح فحسب، إنما على الذابح أن يعمل على التلذذ بطريقة ذبحه"[(٢)]

كاد شعر رأسي أن يشيب من هول ما أرى وأقرأ وأسمع وأكتب وأتحدث! حقا إذا لم تستحِ فافعل ما تشاء! لقد قال النبي ' في معرض حديثه عن حقوق الحيوان: "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ"[(٣)] لك أن تتصور أن النبي '

---

(١) المخطط الصهيوني حتى عام ٢٠٠٠ميلادية: للمقدم كامل الشرقاوي، جـ١، صـ١٣٥ وما بعدها، ط: الناشر العربي، بدون ت.

(٢) داعش والإخوان: إعداد أ. د: محمد مختار جمعة، صـ ٧، ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٣٩هـ – ٢٠١٨م.

(٣) سنن الترمذي، جـ٣، صـ٧٥، حـ١٤٠٩، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

أمر أتباعه بالإحسان أثناء ذبح الحيوان؛ والعناصر التكفيرية تأمر أتباعها بالتلذذ أثناء ذبح الإنسان!!

رابعا: حرق أجساد الأحياء.

من ذبح الأبرياء إلى حرق الأحياء تواصل الكيانات الإرهابية تطرفها وإرهابها لبث الرعب في قلوب الموحدين، والحوادث الإرهابية من هذا النوع أكثر من أن تحصى؛ وحسبنا الإشارة إلى حادثة حرق الطيار الأردني معاذ الكساسبة[١] تلك الحادثة التي هزت مشاعر الكيان الإنساني بأسره من أقصاه إلى أقصاه، ولك أن تتصور كيف كان يشاهد الطفل أباه وهو يُحرق حيا عبر الشاشات الفضائية بالصوت والصورة!! أين صوت الضمير العالمي؟! لا أذن تسمع ولا قلب يجيب!

هذه الأعمال الإجرامية ليست فقط دليلا على وحشية الجماعات التكفيرية بل دليلا على هذيان عقلها في المقام الأول؛ إذ لا أتصور على الإطلاق أن إنسانا يرتكب مثل هذه الجرائم ولديه مثقال ذرة من عقل.

العجيب أن القوم ما زالوا عند عنادهم واستكبارهم وإصرارهم أن الباعث الرئيس لتلك الحوادث الإرهابية هو الوازع الديني والدافع الإيماني! أي دين هذا يأمر بحرق الأحياء؟

---

(١) لقد "بث تنظيم داعش شريط فيديو تناقلته مواقع جهادية على شبكة الإنترنت، يوضح حرق الطيار الأردني معاذ الكساسبة...وظهر في الشريط الكساسبة مرتديا لباسا برتقاليا، ومحتجزا في قفص كبير أسود، قبل أن يضرم رجل ملثم بلباس عسكري النار فيه حتى تفحم" (المصري اليوم، الصادرة يوم الاثنين بتاريخ ٤ فبراير ٢٠١٥م، عدد٣٨٨٨، صـ١، خبر بعنوان: داعش يحرق الطيار الأردنى حيًا)

لقد قالها رسول الله ' بكل وضوح: "لَا يُعَذِّبُ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ"[1] أإله مع الله؟!

أضف إلى ذلك أن الله تعالى عاتب نبيا من أنبيائه بسبب حرقه النمل فضلا عن البشر، فقد قال ': "قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ"[2] فإذا كان هذا الاستنكار من الله تعالى ورسوله ' في حق الحشرات؛ فكيف بمن كرّمه رب الأرض والسماوات؟! لا سيما وأن الله تعالى قد رفع قدره، وأعلى ذكره، وأسجد له ملائكته؟!

هذه الشواهد وغيرها تدل دلالة قاطعة على أن الممارسات الوحشية من جانب الجماعات التكفيرية لا علاقة لها بالدين لا من قريب ولا من بعيد؛ بل تنتمي بالدرجة الأولى إلى قوانين الغاب وشرائع الذئاب!

خامسا: بقر بطون النساء!

بعد البحث عن الجذور التاريخية لتلك الممارسات الوحشية الآنف ذكرها لاحظت أن الخوارج دائما يتصدرون المشهد؛ فقد كانوا لا يتورعون أيضا عن ذبح الأحياء بل بقر بطون النساء الحوامل!

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، جـ٤، صـ٣٠٨، حـ٢٦٧٣، من حديث محمد بن حمزة الأسلمي رضي الله عنه، حديث صحيح.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: إذا حرق المشرك المسلم هل يحرق؟، جـ٤، صـ٦٢، حـ٣٠١٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ولعل أشهر حادثة دموية بهذا الصدد حادثة قتل الصحابي الجليل عبد الله بن خباب[(١)] وزوجته التي بقروا بطنها أثناء حملها! إذ أكدت المصادر التاريخية أن الخوارج قدموا على "عبدَ الله بنَ خَبَّابٍ فذَبَحوه! وجاءوا إلى امْرَأَتِه فقالت: إنّي امرأةٌ حُبلى، ألاَ تَتَّقُونَ الله؟! فذَبَحوها، وبَقَروا بطنَها عن وَلَدِها"[(٢)]

ذئاب بشرية في ثياب آدمية!! تجرد كامل من كل معاني الإنسانية!! نعم هذه هي حادثة واحدة لكنها جمعت بين فصولها أشنع وأبشع الجرائم التي عرفها البشر على مر تاريخهم، ما ذنب هذا الجنين الذي لم ير النور بعد؟! وما ذنب أمّه لترى زوجها يُذبح أمام عينيها بدم بارد؟! وما هي الجريرة التي ارتكبها عبد الله بن خباب في المقام الأول؟ ما أشبه الليلة بالبارحة!

العجيب هو اعتقادهم أن تلك المشاهد الدموية هي طريقهم الوحيد إلى الجنة! ولا غرو فقد كانوا يهتفون دائما : "الرَّوَاحَ الرَّوَاحَ إِلَى الْجَنَّةِ"[(٣)] لا تعقيب!

كانت هذه أبرز الممارسات الوحشية التي تمارسها الجماعات التكفيرية بزعم الجهاد ضد المخالفين مما يدفعنا بالضرورة إلى البحث عن المفهوم الحقيقي للجهاد ووضعه في نصابه الصحيح وذلك من خلال المطلب التالي.

---

(١) هو: "عبد الله بن خباب بن الأرت؛ أدرك النبي صلى الله عليه وسلم له رؤية ولأبيه صحبة، قتله الخوارج سنة سبع وثلاثين، وكان من سادات المسلمين رضي الله عنه" (أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير، جـ٣، صـ٢٢٣، ط: دار الكتب العلمية، ط:١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)

(٢) البداية والنهاية: لابن كثير، جـ٧، صـ٣١٨، مرجع سابق.

(٣) المرجع السابق، صـ٣١٩

المطلب الثالث: نقد الجهاد في المفهوم التكفيري وتصحيحه.

لعلي لا أفارق الحقيقة إذا قلت لا وجه للمقارنة على الإطلاق بين جهاد الجماعات التكفيرية والجهاد الذي صورته الشريعة الإسلامية؛ ويتضح ذلك بجلاء من خلال العناصر الآتية:

أولا: في البداية أود الإشارة إلى أن الجهاد في ميزان الإسلام لا ينحصر فقط في قتال الأعداء بل جاء بمعان متعددة ودلالات مختلفة أميط اللثام عنها فيما يلي:

١- أبان القرآن الكريم أن الجهاد قد يكون بكلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ حيث قال تعالى: "وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا"(١) من خلال السياق الذي وردت فيه الآية بات واضحا أن الله تعالى خاطب نبيه ' أن يجاهد المشركين بالقرآن، ولم يكتف بوصفه جهادا فقط بل سماه جهادا كبيرا؛ فليتأمل!

٢- إلى جانب ذلك أيضا أظهر النبي ' أن الجهاد الحقيقي في الإسلام هو جهاد النفس، حيث قال: "الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ"(٢) بل بوّب البخاري في صحيحه بابا كاملا سمّاه "باب من جاهد نفسه في طاعة الله"(٣)

٣- أضف إلى ذلك أن الجهاد في الإسلام قد يأتي بمعنى تحمل المشقة والأذى وإلى هذا المعنى أشار القرآن الكريم في سورة النحل: "ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ

---

(١) سورة الفرقان، من آية ٥٢

(٢) سنن الترمذي، جـ٣، صـ٢١٧، حـ١٦٢١، من حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، جـ٨، صـ١٠٥، مرجع سابق.

رَحِيمٌ"[١] ومن المعروف أن السورة مكية والجهاد ضد الأعداء لم يشرع إلا في المدينة.

٤- فضلا عن ذلك فقد يرد الجهاد أيضا في الإسلام بمعنى الجهاد بالمال والنفس واللسان، قال ﷺ: "جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ، وَأَنْفُسِكُمْ، وَأَلْسِنَتِكُمْ"[٢] ومنه قول الله تعالى: "وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[٣] ومع كل هذه المعاني الواردة في معنى الجهاد بيد أن الجماعات التكفيرية ضربت بها عرض الحائط ولم تكتف بذلك بل حرفتها وغيرتها وبدلتها وحصرتها في معنى القتال، ولم تكتف بذلك أيضا بل استعملتها في قتال المؤمنين الموحدين!

ثانيا: كشفت العديد من النصوص القرآنية الصريحة أن الهدف الرئيس من مشروعية الجهاد في الإسلام حماية المجتمع الإسلامي من ظلم الأعداء وكبح جماحهم.

١- اقرأ إن شئت قول الله تعالى: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ "[٤]

٢- كما قال تعالى: " مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ

---

(١) سورة النحل، الآية ١١٠

(٢) سنن أبي داود، جـ٣، صـ١٠، حـ٢٥٠٤، مسند الإمام أحمد، جـ١٩، صـ٢٧٢، حـ١٢٢٤٦، من حديث أنس رضي الله عنه، إسناده صحيح على شرط مسلم.

(٣) سورة التوبة، الآية ٤١

(٤) سورة البقرة، الآية ١٩٠

النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا"[١]

٣- في خطاب آخر يقول الله تعالى: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"[٢]

من خلال هذه النصوص الصريحة أصبح واضحا أن الإسلام نهى أتباعه عن البدء بقتال الأعداء؛ حيث أبانت الآية الأولى أن الجهاد موجه فقط ضد من يقاتل المسلمين، ويعتدى عليهم ويخرجهم من ديارهم أو يظاهر على إخراجهم، وفي الوقت ذاته حرمت عليهم البدء بالعدوان والقتال لأن الله تعالى لا يحب المعتدين، أما الآية الثانية فقد أظهرت أن الاعتداء على أي نفس بشرية جريمة في حق الإنسانية كلها، كما أن الحفاظ على حمايتها صيانة للبشرية بأسرها، وأما الآية الثالثة فقد أوضحت أن الجنوح للمسالمة هو الاختيار الأفضل دائما طالما أن الطرف الآخر يقبله.

ثالثا: إذا كانت الجماعات التكفيرية ألحت على أتباعها بضرورة ملاحقة المعاهدين[٣] وذبحهم بدم بارد فإن النبي ﷺ قد حذر تحذيرا شديدا من المساس بهم فضلا عن قتلهم وترويعهم؛ والأحاديث الواردة في هذا الباب يصعب حصرها وحسبنا منها:

١- قول النبي ﷺ: "مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ

---

(١) سورة المائدة، من آية ٣٢

(٢) سورة الأنفال، الآية ٦١

(٣) يقول ابن حجر في معرض حديثه عن المعاهد: "المراد به من له عهد مع المسلمين، سواء كان بعقد جزية أو هدنة من سلطان أو أمان من مسلم" (فتح الباري: لابن حجر العسقلاني، جـ١٢، صـ٢٥٩، مرجع سابق)

مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا"[١]

٢- إلى جانب ذلك قال النبي ‘: "مَنْ أَمّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ، فَقَتَلَهُ، فَإِنَّهُ يَحْمِلُ لِوَاءَ غَدْرٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[٢]

٣- كذلك قال النبي ‘: "أَيُّمَا رَجُلٍ أَمّنَ رَجُلًا عَلَى دَمِهِ ثُمَّ قَتَلَهُ، فَأَنَا مِنَ القاتل برئ وان كان المقتول كافرا"[٣]

هكذا جاء التحذير الشديد والوعد والوعيد من رسول الله ‘ لكل من تسول له نفسه ترويع الآمنين لا سيما إن كانوا من إخواننا المعاهدين، فشتان شتان بين منهج معصوم، يعصم الدماء ويحذر من قتل الأبرياء، وبين منهج آخر مزعوم، يستبيح الدماء ويذبح الأبرياء، فاللهم لك الحمد أن أنرت عقولنا وأبصرت قلوبنا بنور الإسلام وكفي به نعمة.

رابعا: من زاوية أخرى فإن النبي ‘ نهى المسلمين عن قتل أي امرئ قال لا إله إلا الله حتى وإن قالها بلسانه؛ وليس أدل على ذلك من حديث أسامة بن زيد ¢ حيث قال: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ‘ فِي سَرِيَّةٍ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتِ مِنْ جُهَيْنَةَ[٤]، فَأَدْرَكْتُ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب: الديات، باب: إثم من قتل ذميا بغير جرم، جـ٩، صـ١٢، حـ٦٩١٤، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) سنن ابن ماجه: لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، جـ٢، صـ٨٩٦، حـ٢٦٨٨، ط: دار إحياء الكتب العربية، بدون ت، من حديث عمرو بن الْحَمِقِ الْخُزَاعِيِّ رضي الله عنه، قال محمد فؤاد عبد الباقي: إسناده صحيح.

(٣) صحيح ابن حبان، جـ١٣، صـ٣٢٠، حـ٥٩٨٢، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:١، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م من حديث عَمْرِو بْنِ الْحَمِقِ الْخُزَاعِيِّ رضي الله عنه.

(٤) الحرقات من جهينة: "بضم الراء وفتحها، وهو موضع معروف من بلاد جهينة، يسمى بجمع المؤنث السالم؛ كعرفات، وأذرعات" (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: لأبي

رَجُلًا فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَطَعَنْتُهُ فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : «أَقَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السِّلَاحِ، قَالَ: «أَفَلَا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا؟» فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ"(١)

هذا التبكيت والتأنيب والتوبيخ من رسول الله كفيل بإخراس الجماعات التكفيرية إلى يوم القيامة؛ والتي لم تلتفت لتلك النصوص الصريحة وراحت تقاتل المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها بدعوى فرضية الجهاد!

خامسا: فضلا عما سبق إذا تطلب الأمر إعلان الجهاد في وقتنا الحاضر فما هي الجهة المنوطة بإعلان هذا الجهاد؟ هل هو حق من حقوق الأفراد؟

لقد "اتفق المجتمعون على أنه: رد العدوان عن الدولة بما يماثله دون تجاوز أو شطط، ولا مجال للاعتداء، ولا حق للأفراد في إعلانه، إنما هو حق لرئيس الدولة، والجهات المختصة بذلك وفق القانون والدستور، وإلا سنعيش في همجية وفوضوية"(٢) وهذا ما تصبوا إليه الجماعات التكفيرية؛ تريد الاحتكام إلى قوانين الغاب وليس إلى دولة القانون.

العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، جـ١، صـ٢٩٦، ط: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط:١، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦م)

(١) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، جـ١، صـ٩٦، حـ٩٦.

(٢) مفاهيم يجب أن تصحح: للأستاذ الدكتور عبد الله مبروك النجار، وآخرون، صـ ٣٩، مرجع سابق.

أكتفي بهذا القدر من تسليط الأضواء على المفهوم الصحيح للجهاد في ميزان الشرع الحكيم وأنتقل إلى مبحث آخر حيث القضية الخامسة والأخيرة من القضايا الفكرية لدى الجماعات التكفيرية.

المبحث الخامس: قضية الهجـــــرة ونقدها

بعد أن أعلنت الجماعات التكفيرية الجهاد ضد كل مخالفيها قامت تنادي بدون أي مقدمات أو سابق إنذار وتطالب الموحدين بترك ديارهم وأوطانهم والفرار إلى الدولة الإسلامية الناشئة حسب زعمهم!

ما هذا الهزل والهراء؟ حسبك؛ إنه الأصل الخامس من الأصول الفكرية لدى الجماعات التكفيرية: الهجرة من ديار الكفر إلى دار الإسلام؛ فماذا عن تحرير هذا المعتقد؟ وكيف فهمته الجماعات التكفيرية؟ وما هي البواعث الدافعة للنداء بالهجرة؟ وموقف الإسلام منها؟ هذا هو محور حديثنا ومحط أنظارنا بمشيئة الله تعالى في هذا المبحث؛ وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: المفاهيم المغلوطة حول مصطلح الهجرة.

قبل الشروع في البحث عن المفاهيم المغلوطة حول هذا المصطلح عند الجماعات التكفيرية ألحت الضرورة في كل مرة البحث عن تحرير المصطلح في لغة العرب كما يلي:

جاء في معاجم اللغة: "الهَجْرُ: ضد الوصل، وقد هَجَرَهُ هَجْراً وهِجْراناً، والاسم الهِجْرَةُ، والهجرتان: هجرة إلى الحبشة، وهجرة إلى المدينة"[1] والهجرة: "الْخُرُوجُ مِنْ أَرض إِلى أَرض، والمُهاجِرُونَ: الَّذِينَ ذَهَبُوا مَعَ النَّبِيِّ، "[2]

بعد هذا البيان اللغوي بات واضحا أن مصطلح الهجرة في معاجم اللغة يشير إلى ترك البلدان والخروج من الأوطان؛ أما الهجرة في معناها الشرعي فتطلق

---

(١) الصحاح: للفارابي، جـ٢، صـ٨٥١، مرجع سابق.

(٢) لسان العرب: لابن منظور، جـ٥، صـ٢٥١، مرجع سابق.

على الهجرة الأشهر في تاريخ البشر؛ وهي الهجرة من مكة إلى المدينة؛ بيد أن الجماعات التكفيرية كانت لها مفاهيم أخرى حول مصطلح الهجرة يتجلى فيما يلي:

بعد البحث عن مفهوم الهجرة لاحظت أنهم يطلقونها دائما على الخروج من ديار الكفر إلى دار الإسلام؛ لكن أتدري ما هي ديار الكفر في خيالاتهم؟ تأمل قولهم: "كل دولة لا تحكم بالشريعة تعتبر ديار كفر وردة ويجب قتالها"(١) رائع! على فرض صحة هذا العبث فما هي تلك الدول التي تحكم بالشريعة إذا لكي نهاجر إليها؟ استمع إلى جوابهم: "ليس على وجه الأرض اليوم دولة مسلمة ولا مجتمع مسلم، قاعدة التعامل فيه هي شريعة الله والفقه الإسلامي!"(٢)!! لا تعليق!!

إن القوم يعتبرون أن كل بقاع العالم ديار كفر وردة؛ ودار الإسلام الوحيدة في العالم هي الأرض التي وطأتها أقدامهم؛ أرأيتم هراء أعجب من ذلك؟

لقد صور الشاعر حالي وأنا أكتب تلك العبارات:

"وَلِي كَبِدٌ مَقرَوْحَةٌ مَنْ يَبِيْعُنِي ... بِهَا كَبِدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوْحِ
أباها عَلَيَّ النَّاسُ لَا يَشْتَرُونَهَا ... وَمَنْ يَشْتَرِي ذَا عِلَّةٍ بِصحِيْحِ"(٣)

من أين أتت الجماعات التكفيرية بتلك الأفكار الهزلية؟ ما هي المصادر التي اعتمدوا عليها في نقل تلك الأخبار الصادمة؟! بعد البحث والفحص لاحظت أن

---

(١) داعش من النجدي إلى البغدادي: لفؤاد إبراهيم، صـ١٤١، مرجع سابق.

(٢) في ظلال القرآن: لسيد قطب إبراهيم، جـ ٤، صـ ٢١٢٢، ط: دار الشروق . القاهرة، بدون ت.

(٣) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصفهاني، جـ٢، صـ٨٧، ط: دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط:١، ١٤٢٠هـ

خوارج الماضي يتصدرون المشهد في كل جريرة؛ حيث زعم الأزارقة[١] قديما: "أن الدار دار كفر يعنون دار مخالفيهم"[٢] هكذا زعم الأوائل! جميع المخالفين لهم عن بكرة أبيهم يعيشون في ديار الكفر؛ ومن ثم وجبت هجرتهم إلى دار الإسلام!

وانطلاقا من هذا الفكر السقيم والمعتقد العقيم بدأت الكيانات الإرهابية تناشد جموع المسلمين في المشارق والمغارب بالفرار بدينهم إلى أرض الخلافة المزعومة؛ فهذا هو المتحدث الإعلامي باسم التنظيم الإرهابي[٣] يدعو قائلا: "هلموا أيها المسلمون إلى أرض الخلافة؛ فلأن تكون راعي ضأن في دار الإسلام خير لك من أن تكون سيدا مطاعا في دار كفر"[٤]

لقد كانت هجرة النبي ' تمثل علامة فارقة في تاريخ الرعيل الأول من الصحابة رضوان الله عليهم؛ حيث كانت سببا في انتقالهم من رعاة الغنم إلى قادة للدول والأمم؛ بينما الخطاب التكفيري السالف يدعو قادة الأمم إلى رعاية الغنم! هكذا أعلنوها صراحة: لأن تكون راعي ضأن في دار الإسلام خير لك من أن تكون سيدا مطاعا في قومك!!

أرأيتم الفارق الجوهري بين الهجرة النبوية والهجرة الداعشية؟! الأولى أخرجت الناس من الظلمات إلى النور؛ بينما الأخيرة أصرت على إخراجهم من النور إلى الظلمات!

---

(١) سبقت ترجمتها، يُنظر صـ٢٧ من هذه الدراسة.

(٢) مقالات الإسلاميين: لأبي الحسن الأشعري، جـ ١، صـ ٨٥، مرجع سابق.

(٣) هو: "أبو محمد العدناني" سبقت ترجمته، يُنظر صـ ٣٧من هذه الدراسة.

(٤) الحرورية الأولون وداعش المعاصرون: لموسى الغنامي، صـ٣١، مرجع سابق.

بعد بيان هذه المفاهيم المغلوطة حول مصطلح الهجرة لدى خوارج الماضي وخوارج العصر ألحت الضرورة إلى عرض جانب من الإغراءات التي تقدمها الكيانات الإرهابية في واقعنا المعاصر لتكون دافعا إلى الهجرة كما في المطلب التالي.

المطلب الثاني: **الإغراءات الباعثة إلى الهجرة**.

لقد تعمدت الجماعات التكفيرية إغراء المساكين بشتى الطرق ومختلف الأساليب من أجل الهجرة إلى دار الإسلام على حد زعمهم؛ ويتضح ذلك جليا من خلال النقاط التالية:

أولا: لجأت الكيانات الإرهابية إلى إغراء المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بالهجرة إلى دولتهم الناشئة من أجل تحرير البلاد من ظلم العباد؛ ومن ثم العيش في أمن وأمان؛ لكن أتدري أي البلاد أرادوا أن يحرروها؟! أَدَعُ الإجابة للجماعات المتطرفة لتدلي بدلوها.

لقد جاء على لسانهم نصا: "إن الذي يريد أن يقاوم الباطل وهو تحت الباطل هذا مخالف لسنن الله ´، إن المهاجر في كل لحظة كل خلية من خلاياه تصيح في أعماق قلبه أنك خرجت لتحرير البيت العتيق، كل لحظة من لحظاته تصيح خلاياه في قلبه وفي أذنيه إياك أن تنسى البيت العتيق، فيبقى مهاجرا حتى يرفرف علم التوحيد بحق فوق بلاد الحرمين"(١)

كاد المداد أن يجف أثناء تسطير هذا الهزل والهراء!! هذه الهجرة التي طالبوا بها قد تكون مقبولة إذا كانت تهدف إلى تحرير بيت المقدس من بطش اليهود؛ لكن

(١) مجموع رسائل وتوجيهات أسامة بن لادن، صـ ٣٣٩، مرجع سابق.

أن يتعمد الخطاب تأجيج المشاعر وإلهاب حماس الجماهير من أجل تحرير البيت العتيق؟! فهذا لا يقبله عقل، ولا يستوعبه منطق، ولا يرضاه دين!

ثانيا: على الجانب الآخر كانت هناك ألوان أخرى من سياسات الإغراء؛ حيث وجَّهت الكيانات الإرهابية خطابها إلى الفقراء والمستضعفين، فزعمت أن دولتهم الناشئة مهَّدت لهم الطرق وشقّت لهم الأنهار! ودشَّنت لهم البساتين والرياحين ولم يبق سوى الهجرة ليس فقط إلى أرض الخلافة بل إلى جنة الله في أرضه!

أَدَعُ القوم يحدثونا بأنفسهم عن تلك الجنات عبر خطاباتهم التي ألهبت حماس المحبين، يقول أبو بكر البغدادي[١]: "وإنّي اليومَ ومن واجبِ المسؤوليةِ التي أُلقيت على عاتِقي أدعُو أهلِي الفلسطينيّين للعودَةِ إلى أرضِ دولةِ العراقِ الإسلاميَّةِ، وخاصةً في الأنبار، وصلاح الدِّين، وديالى؛ فقد تمَّ تجهيزُ عشراتِ القُرَى لهم بها أحسنُ البيوتِ والمزارعِ والبساتين تشقُّها الأنهارُ، ومَحميةٌ برجالِ دولةِ الإسلامِ أفاءَها اللهُ علينا"[٢]

بعد الاطلاع على هذا الخطاب أيقنت أن الكشف الطبي على عقلية هذا الصنف من البشر بات أمرا ملحا لا مناص منه! هل يصدِّق عاقل أن تلك الجنات والبساتين والورود والرياحين موجودة في أي بقعة من العراق فضلا عن الأنبار وصلاح الدين؟! العراق التي كانت في هذا التوقيت وما زالت إلى يومنا هذا على

---

(١) هو: "إبراهيم عواد إبراهيم علي البدري السامرائي، وشهرته أبو بكر البغدادي، وهو أمير تنظيم داعش الإرهابي، وُلد في ٢٨ يونيو ١٩٧١م، ونصّب نفسه خليفة للمسلمين في ٢٩ يونيو ٢٠١٤م، ولقي حتفه في ٢٦ أكتوبر ٢٠١٩م" (لمزيد من التفاصيل حول ترجمته يُنظر الموسوعة الحرة بشبكة المعلومات العنكبوتية، مادة بعنوان: أبو بكر البغدادي)

(٢) تنظيم القاعدة ومشروع الدولة الإسلامية: لسعيد حازم السويدي، صـ ٥٣، مرجع سابق.

صفيح ساخن لا يهدأ لا ليلا ولا نهارا! هل يعقل في وسط تلك البيئة الملتهبة أن يكونوا قد أعدوا لنا جنات تجري من تحتها الأنهار؟!

من جانب آخر لاحظ هذا النص الداعشي يخاطب من؟! إن الخطاب موجه إلى المواطن الفلسطيني في المقام الأول! أليست هذه الدعوة تثير العديد من علامات الاستفهام؟! أليست هذه الهجرة في صالح الكيان المحتل بالدرجة الأولى؟ يبدو أن الحقائق بدأت تتكشف لنا شيئا فشيئا؛ لكن شاءت إرادة الله تعالى رغم الظروف المعيشية والأوضاع المأساوية التي يعيشها المواطن الفلسطيني ألّا يلتفت لتلك الدعوات الخداعة؛ ولا غرو فمنذ عشرات العقود يُدافع عن أرضه ووطنه دون هوادة.

ثالثا: لما باءت كافة المحاولات السالفة بالفشل الذريع بدأت الكيانات الإرهابية تولي وجهها شطر فصيل آخر لعل دعوتها تؤتي ثمارها المرجوة؛ حيث توجهت بخطابها إلى الملتحمين معهم في ميدان القتال الذين يمثلون خط الدفاع الأول للدولة! فكان الإغراء في هذه المرة إلى الجنود البواسل من رجال الشرطة والقوات المسلحة، وهذا ما يكشف عنه النص التالي بجلاء:

يقول مفتي الجماعات التكفيرية(١) في معرض خطابه عن الجيوش العربية والإسلامية: "رغّب الله تعالى بالهجرة والفرار من هذه الصفوف المشركة ووعد

---

(١) هو: "أبو محمد عاصم بن محمد بن طاهر المقدسي، من قرية برقة من أعمال نابلس ولد فيها عام ١٣٧٨هـ الموافق ١٩٥٩م، وهو المفتي الأبرز للجماعات التكفيرية في وقتنا الراهن، وقام بتأليف عشرات الكتب أشهرها: ملة إبراهيم، وهذه عقيدتنا، والكواشف الجلية في كفر الدولة السعودية، وغيرها من الكتب المتطرفة" (لمزيد من التفاصيل حول ترجمته يُنظر منبر التوحيد والجهاد بشبكة المعلومات العنكبوتية، مادة بعنوان: ملف أبي محمد المقدسي، بتصرف)

أهلها بالرزق الوفير الواسع، فمن ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه، وذلك ليقطع كل حجج القوم الواهية، فقال: {وَمَن يهُاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرض مراغماً كثيراً وسعة}(١)

بعد القراءة المتأنية لهذا الخطاب الداعشي لاحظت أنه أماء إلى إشارات ثلاث:

١- بالنسبة للفئة التي وُجِّه إليها الخطاب؛ فقد بات واضحا أن لغة القوة الغاشمة لم تعد تجدي نفعا مع هؤلاء البواسل فعدلوا عنها إلى لغة الخطاب الناعم لعلها تؤتي أكلها!

٢- أما بالنسبة لفحوى الخطاب؛ فقد ظهر هذا الإغراء الواضح بالرغد في العيش والرزق الوفير لمن يلبي نداء الهجرة إلى الدولة الإسلامية الناشئة.

٣- أما الطامة الكبرى فتكمن في الأدلة التي استخدمها الخطاب؛ حيث تعمد اجتزاء النصوص القرآنية من سياقها وإسقاطها على هجرتهم لصبغها بصبغة شرعية! ومن المعلوم أن الآية لا علاقة لها بهجرة الجماعات التكفيرية لا من قريب ولا من بعيد؛ بيد أن سياسة التلفيق والتزوير باتت هي السمة البارزة للجماعات المتطرفة.

رابعا: فضلا عن كل ما سبق؛ لو افترضنا جدلا صحة ادعاءاتهم السالفة وباتت الحاجة فعلا ماسة إلى الهجرة؛ فلمن نترك الأهل والديار؟ لمن نترك البلاد والأوطان؟! مَن الذي يُعمّرها بعد هجرها خاوية على عروشها؟! تمتع بضبط النفس لاستقبال هذه الإجابة الصادمة!

يقول أسامة بن لادن الزعيم السابق لتنظيم القاعدة:"وهنا إشكال قد يثيره من تعلقوا بالأسباب تعلقا رهيبا جدا، فيقولون: تقول بالهجرة، فهل يخرج جميع الناس

---

(١) كشف شبهات المجادلين: لأبي محمد عاصم المقدسي، صـ ٤٢، ٤٣، والآية في سورة النساء، من آية ١٠٠

ويتركون البلاد للفسقة والظلمة وكذا؟ أقول: إن الرسول ' عندما أمر بالهجرة وكانت فرض عين على الصحابة € لم يتعلل أحد منهم بهذه العلل الواهية، ولم يقولوا: كيف نترك مكة لأبي جهل؟!"[1]

لقد بلغ الغي مداه والجهل منتهاه! ولم أعد أقوى على تحمل هذا الهزل والهراء والكذب والافتراء، ولا غرو فهجر البلاد وتركها للظلمة والفسقة في عرف الجماعات التكفيرية أصبح أمرا طبيعيا لا حرج فيه طالما كانت الهجرة على نهج الصحابة الذين لم يتعللوا بتلك العلل الواهية!!

العجيب أن يصدر هذا الكذب الصراح ممن يدَّعون تمسكهم بالدين! ومعلوم أن الكذب يَهدي إلى الفجور، وأن الفجور يَهدي إلى النار، وإنه لا يُؤْمَنُ على دِين الله الفجار.

هذه الترهات التي أطلقتها الجماعات التكفيرية تدفعنا على الفور إلى إماطة اللثام عن الفهم الصحيح لهجرة النبي ' كما يتبين في المطلب التالي.

المطلب الثالث: **نقد مفهوم الهجرة وتصحيحه**.

يطيب لي في هذا المطلب عرض جانب من الشواهد الناطقة بكذب الجماعات التكفيرية حول قضية الهجرة؛ وهي كثيرة للغاية يطول بنا المقام لعرضها كاملة؛ وحسبنا منها ما يلي:

أولا: بالعودة إلى البواعث الدافعة لهجرة النبي ' نلاحظ أن الهدف الرئيس لها هو تكوين مجتمع إسلامي يتمكن فيه المسلمون من إقامة شعائر دينهم بحرية كاملة، وبعدما تحقق هذا الهدف النبيل سقطت الهجرة بإجماع الأدلة القاطعة والبراهين

(١) مجموع رسائل وتوجيهات أسامة بن لادن، صـ ٣٩٧، ٣٩٨، مرجع سابق.

الساطعة، وخير شاهد على ذلك ما جاء في صحيح البخاري ومسلم أن النبي ' قال: "لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا"[١]

هكذا قالها النبي ' واضحة كالشمس في ضحاها والقمر إذا تلاها، يقول الإمام الخطابي[٢] في شرح هذا الحديث: "كانت الهجرة فرضاً في أوّل الإسلام على من أسلم لقلة المسلمين بالمدينة وحاجتهم إلى الاجتماع، فلمّا فتح الله مكة دخل النّاس في دين الله أفواجاً فسقط فرض الهجرة إلى المدينة وبقي فرض الجهاد والنيّة على من قام به أو نزل به عدوّ"[٣]

بناء على ذلك فإن كافة الدعوات التي أطلقتها الجماعات التكفيرية للهجرة قياسا على هجرة النبي ' تُعد من قبيل الافتراءات التي ما أنزل الله بها من سلطان؛ لا سيما إذا كانت هذه الهجرة من أهم مظاهرها الغارة على بلاد الحرمين بدعوى تحرير البيت العتيق! أو دعوة الفلسطينيين العزل لترك ديارهم وأوطانهم بدعوى الهجرة إلى الدولة الناشئة!

ثانيا: امتداد لمفهوم الهجرة الصحيح في عهد النبي ' كان الصحابة رضوان الله عليهم يتصدرون لكافة دعوات الخوارج التي نادت بالهجرة، فعن سعيد بن جُمْهان[٤] قال: "كُنَّا نُقَاتِلُ الْخَوَارِجَ وَفِينَا عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى وَقَدْ لَحِقَ غُلَامٌ لَهُ

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، جـ٤، صـ١٥، حـ٢٧٨٣، صحيح مسلم، جـ٢، صـ٩٨٦، حـ١٣٥٣، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبقت ترجمته، يُنظر صـ٣٣ من هذه الدراسة.

(٣) فتح الباري: لابن حجر العسقلاني، جـ٦، صـ٣٨، مرجع سابق.

(٤) هو: "سعيد بن جمهان الأسلمي، أبو حفص البصري، روى عن: سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن أبي أوفى، وعبد الرحمن بن أبي بكرة؛ وآخرين، مات

بِالْخَوَارِجِ، وَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الشَّطِّ، وَنَحْنُ مِنْ ذَا الشَّطِّ، فَنَادَيْنَاهُ أَبَا فَيْرُوزَ أَبَا فَيْرُوزَ، وَيْحَكَ هَذَا مَوْلَاكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى؟ قَالَ: نِعْمَ الرَّجُلُ هُوَ لَوْ هَاجَرَ. قَالَ: مَا يَقُولُ عَدُوُّ اللهِ، قَالَ: قُلْنَا: يَقُولُ: نِعْمَ الرَّجُلُ لَوْ هَاجَرَ. قَالَ: فَقَالَ: أَهِجْرَةٌ بَعْدَ هِجْرَتِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ؟ ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُمْ وَقَتَلُوهُ"[١]

هذا الاستفهام الاستنكاري من صحابة رسول الله دليل آكد أيضا أن هجرة الجماعات التكفيرية ليست على منهاج النبوة؛ وإنما هي نتاج تقلبات مزاجية وأهواء شيطانية، وقد صدق الحق إذ يقول: "وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ"[٢]

ثالثا: إضافة إلى ما تقدم؛ تقول السيدة عائشة ~: "لاَ هِجْرَةَ اليَوْمَ، كَانَ المُؤْمِنُونَ يَفِرُّ أَحَدُهُمْ بِدِينِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِلَى رَسُولِهِ ، مَخَافَةَ أَنْ يُفْتَنَ عَلَيْهِ، فَأَمَّا اليَوْمَ فَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ الإِسْلاَمَ، وَاليَوْمَ يَعْبُدُ رَبَّهُ حَيْثُ شَاءَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ"[٣]

بالبصرة سنة ست وثلاثين ومئة" (تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف؛ الكلبي المزي، جـ١٠، صـ٣٧٦، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط:١، ١٤٠٠ – ١٩٨٠)

(١) مسند الإمام أحمد، جـ٣١، صـ٤٨٦، حـ١٩١٤٩، ط: الرسالة، ط:١، ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م، حديث صحيح.

(٢) سورة القصص، من آية ٥٠

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة، جـ٥، صـ٥٧، حـ٣٩٠٠، ط: دار طوق النجاة، ط:١، ١٤٢٢هـ. من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها.

فضلا عن تأكيد السيدة عائشة ~ أنه لا هجرة بعد هجرة رسول الله ‘ فإن النص قد أبان أن الهجرة النبوية كانت من دار الخوف إلى دار الأمان، وهذه القضية لا يختلف فيها اثنان، التساؤل الآن: هل يصح أن يُطلق على بلادنا ديار خوف؟ هل يوجد في بلادنا تعذيب للموحدين لكي يتركوا دينهم؟! هل هناك ما يمنع من إقامة الصلاة أو ممارسة أي شعيرة من شعائر الإسلام؟! بالطبع لا، على الجانب الآخر؛ هل يصح أن يُطلق على ديار الكيانات الإرهابية دار أمن وأمان؟! إن القتل الذي استشرى هناك كفيل بالرد على تلك التساؤلات.

الشاهد في هذا المقام: إذا أيقنا أن بلادنا ليست دار خوف؛ وديارهم ليست دار أمان سقطت دعوتهم إلى الهجرة بكل المقاييس الشرعية والعقلية.

رابعا: جدير بالذكر؛ لا ننكر أن هناك العديد من التجاوزات والسلبيات في بلاد الإسلام، هذه التجاوزات قطعا من الطبيعة البشرية بل لا أبالغ إذا قلت من الضرورة البشرية التي لا مفر منها ولا غنى عنها؛ ولا غرو فقد قال النبي ‘: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"(١)

هذا الحديث يؤكد بكل وضوح أن المثالية المتناهية لا وجود لها في دنيا البشر؛ حتى مدينة النبي ‘؛ مع أنها المدينة الفاضلة بيد أنها لم تخل من التجاوزات البشرية؛ ومع ذلك لم يثبت عن النبي ‘ أنه طالب أصحابه بالهجرة منها.

(١) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبة جـ٤، صـ٢١٠٦، حـ٢٧٤٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

خامسا: كشَف النبي صلى الله عيه وسلم عن المعنى الحقيقي لمفهوم الهجرة والمهاجر في الإسلام، فقال ما نصه: "المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ"(١) وفي رواية أخرى: "خَرَجَ فُدَيْكٌ(٢) إِلَى رَسُولِ اللهِ ‘, فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ, إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يُهَاجِرْ هَلَكَ, فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ‘: "يَا فُدَيْكُ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآتِ الزَّكَاةَ وَاهْجُرِ السُّوءَ وَاسْكُنْ مِنْ أَرْضِ قَوْمِكَ حَيْثُ شِئْتَ تَكُنْ مُهَاجِرًا"(٣)

إنها رسالة من رسول الله ‘ إلى الجماعات التكفيرية في كل زمان ومكان؛ إذا كانت لديها النية الصادقة والرغبة الجامحة للهجرة؛ فعليها أولا بهجرة الذنوب والمعاصي وكافة أعمال السوء، إذا أرادت الكيانات الإرهابية أن تهاجر إلى الله حقا توجّب عليها أن تكف عن إرهاب الموحدين وترويع الآمنين؛ تلك هي الهجرة الحقيقية التي نادى بها رسول الله ‘.

أكتفي بهذا القدر من إماطة اللثام عن المفهوم الصحيح للهجرة النبوية، وإلى هذا الحد أكون قد انتهيت من بيان الأصول الفكرية لدى الجماعات التكفيرية، ودحضها قدر استطاعتي ولم يبق في هذا البحث سوى عرض أبرز النتائج والتوصيات.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: أي الإسلام أفضل؟، جـ١، صـ١١، حـ١٠، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) هو الصحابي الجليل: "فديك الزبيدي، العقيلي، حجازي، له صحبة" (الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر، جـ٣، صـ١٢٦٨، ط: دار الجيل، بيروت، ط:١، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢م)

(٣) المعجم الأوسط: للطبراني، جـ٣، صـ٦، حـ٢٢٩٨، شرح مشكل الآثار: للطحاوي، جـ٧، صـ٤٩، حـ٢٦٣٩، ط: مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤م، من حديث فديك رضي الله عنه.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، لقد انتهى هذا البحث إلى عدة نتائج وتوصيات أهمها:

أولا: النتائج:

١- أماطت الدراسة اللثام عن أهم القضايا الفكرية لدى الجماعات التكفيرية؛ وكان في مقدمتها عقيدة الحاكمية؛ حيث الدعوة إلى الثورة الشاملة والحرب الضارية على القوانين العصرية بدعوى احتكامها إلى دين الجاهلية.

٢- انطلاقا من فكرة الحاكمية التي آمنت بها الجماعات التكفيرية أماطت الدراسة اللثام عن قيام العناصر التكفيرية بتوزيع بطاقات الكفر بالمجان على جموع البشر بلا ضابط ولا رابط، فصارت تُخرج من الدين من تشاء؛ وتبقي فيه من تشاء حسب أهوائها وأطماعها.

٣- كشفت الدراسة الستار عن تبني الجماعات التكفيرية لعقيدة الولاء والبراء كما فعلت الوهابية؛ بيد أنها زادت في غيها وضلالها فأعلنت ولاءها للجماعات المتطرفة وحدها؛ وتبرأت من كل مخالفيها حتى كادت تعادي نفسها!!

٤- أبان البحث أيضا جانبا من قيام الجماعات التكفيرية بشن حروب ضارية ضد جموع المخالفين لهم بدعوى فرضية الجهاد؛ وذلك بدءا من الطبقة الحاكمة بمختلف مسمياتها، مرورا بالمدنيين، وانتهاء برفاقها في العمل الجهادي!!

٥- أخطر ما كشفت عنه الدراسة على الإطلاق تلك الممارسات الوحشية التي انتهجتها الجماعات التكفيرية؛ والتي تجسدت في ذبح الأبرياء! وحرق الأحياء! وهتك أعراض الشرفاء! وبقر بطون النساء! وغيرها من الممارسات الوحشية التي يندى لها الجبين وتتفطر لها الأكباد!

٦- كشفت الدراسة عن تلك الدعوة الهزلية التي نادت بها الجماعات التكفيرية؛ حيث طالبت الموحدين بترك ديارهم وأوطانهم والفرار إلى الدولة الإسلامية الناشئة؛ بدعوى الهجرة من ديار الكفر إلى دار الإسلام!

٧- اهتمت الدراسة في كل مبحث بتصحيح المفاهيم المغلوطة، وأبانت موقف الإسلام من تلك الترهات من خلال نصوص القرآن الكريم الصريحة ونصوص السنة النبوية الصحيحة.

بعد هذا العرض الموجز لأبرز النتائج التي أسفر عنها البحث لم يبق سوى عرض أهم التوصيات والاقتراحات في ضوء تلك النتائج وذلك من خلال العنصر التالي.

ثانيا: **التوصيات**.

بعد استقراء النتائج الآنف ذكرها يتسنى للباحث أن يوصي بما يلي:

١- إدراج مادة الثقافة الإسلامية ضمن المناهج التعليمية بالجامعات العصرية، على غرار مادة الثقافة الإسلامية التي يتدارسها طلاب المرحلة الإعدادية والثانوية الأزهرية، ولا مانع من الاستعانة بعلماء الأزهر الشريف في تدريسها.

٢- إتاحة الفرص الكافية لعلماء الأزهر الشريف عبر وسائل الإعلام المختلفة لا سيما الإعلام الفضائي لمواجهة الأفكار المتطرفة؛ وذلك بتفنيد الشبهات التي تثيرها الجماعات التكفيرية ودحضها بالأدلة القاطعة والحجج المقنعة.

٣- تفعيل دور المساجد على غرار المسجد الذي بناه رسول ﷺ في المدينة، ولا أقصد بالتفعيل هنا إقامة الصلوات المفروضة فحسب؛ بل إقامة أعمال مسجد الرسول ﷺ كاملة، وذلك برعاية أزهرية خالصة لقطع الطريق على خفافيش الظلام من العبث بعقول الشباب.

٤- عودة الكتاتيب من جديد بات أمرا ملحا للغاية، فلا شك أنها فرصة سانحة لقطع الطريق على الجماعات التكفيرية التي تسعى دائما لاختطاف النصوص من سياقها وتحريفها حسب أطماعهم وأهوائهم.

٥- حث أولياء الأمور ودعوتهم لإلحاق أبنائهم بالتعلم في رحاب الأزهر الشريف؛ وذلك لضمان حماية عقيدتهم من التشويش والتشويه، الأمر الذي يدفعنا إلى العمل على اتساع رقعة التعليم الأزهري من معاهد وكليات داخل القرى والمدن والمحافظات، للتيسير على الأسر التي تجد صعوبة بالغة في نقل أولادهم لا سيما الفتيات من مدينة إلى أخرى، وربما من محافظة إلى أخرى.

٦- قيام الأزهر الشريف بمزيد من القوافل الدعوية على المقاهي الثقافية، والنوادي الاجتماعية، والمحلات التجارية، والتحامه المباشر مع المواطنين في مختلف مناحي الحياة؛ لمواجهة التطرف من خلال العمل الميداني.

٧- أما فيما يتعلق بتأديب الجماعات المتطرفة فحسبنا تطبيق حد الحرابة بشأنهم ليكون رادعا لهم وزاجرا لغيرهم، ولا غرو؛ فإن من أمن العقوبة أساء الأدب، ومن المعلوم أن الله تعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

في نهاية البحث كانت هذه جملة من التوصيات والاقتراحات سائلا المولى ¸ أن تأخذ طريقها إلى التطبيق والله الموفق والمستعان.



قائمة المصادر والمراجع

ثبت بأهم مصادر ومراجع البحث:-

١-القرآن الكريم.
٢-إحياء علوم الدين: لأبي حامد الغزالي، ط: دار المعرفة – بيروت، بدون ت.
٣-الأخلاق والسير في مداواة النفوس: لابن حزم، ط: دار الآفاق الجديدة – بيروت، ط:٢، ١٣٩٩ ١٩٧٩ – ﮨم
٤-الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر، ط: دار الجيل، بيروت، ط:١، ١٤١٢ ﮨ – ١٩٩٢م
٥-أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير، ط: دار الكتب العلمية، ط:١، ١٤١٥ ﮨ – ١٩٩٤م
٦-الإسلام السياسي: للمستشار محمد سعيد العشماوي، ط: مكتبة مدبولي الصغير؛ القاهرة، ط:٤، ١٤١٦ ١٩٩٦ – ﮨم.
٧-الاعتصام: للشاطبي، ط:١، ط: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٩ ﮨ – ٢٠٠٨م
٨-الأعلام: للزركلي، ط: دار العلم للملايين، ط:٥، ٢٠٠٢م
٩-الاقتصاد في الاعتقاد: للإمام الغزالي، ط:١، ١٤١٥ ﮨ.
١٠- إمتاع الأسماع: للمقريزي، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط:١، ١٤٢٠ ﮨ – ١٩٩٩م
١١- البداية والنهاية: لابن كثير، ط: دار إحياء التراث العربي، ط:١، ١٤٠٨ ﮨ – ١٩٨٨م
١٢- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لعلاء الدين أبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني الحنفي، ط: دار الكتب العلمية، ط:٢، ١٤٠٦ ١٩٨٦ – ﮨم.
١٣- بيان الضلال والخطأ الفاحش في الرضا والدفاع عن خوارج داعش: لمحمد إبراهيم المصري، ط: مكتبة العقيدة الإسلامية؛ القاهرة، ط:١، ١٤٣٦ ٢٠١٥ – ﮨم
١٤- تاج العروس من جواهر القاموس: للزبيدي، ط: دار الهداية، بدون ت.
١٥- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: للإمام الذهبي، ط: دار الكتاب العربي،

بيروت، ط:١، ٢٠٠٣م

١٦- تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الله الواحد الديان وذكر حوادث الزمان: لإبراهيم عبيد عبد المحسن، ط: مكتبة الرشد، الرياض ، ط:١، ١٤٢٨ - ٢٠٠٧ م

١٧- تفسير القرآن العظيم: لابن كثير ط: دار طيبة، ط:٢، ١٤٢٠ - ١٩٩٩ م

١٨- تفسير يحيى بن سلام: ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي البصري القيرواني، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:١، ١٤٢٥ - ٢٠٠٤ م

١٩- تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل: لأبي بكر الباقلاني المالكي، ط: مؤسسة الكتب الثقافية – لبنان، ط:١، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ م

٢٠- تنظيم القاعدة ومشروع الدولة الإسلامية: لسعيد حازم السويدي، ط: مركز ثبات للبحوث والدراسات، ط:١، ١٤٣٧ - ٢٠١٦ م.

٢١- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: ليوسف بن عبد الرحمن بن يوسف؛ الكلبي المزي، ط: مؤسسة الرسالة – بيروت، ط:١، ١٤٠٠ – ١٩٨٠

٢٢- تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط:١، ٢٠٠١م.

٢٣- التوقف والتبيّن: لمحمد سرور زين العابدين، ط: دار الجابية، لندن – بريطانيا، ط:٤، ١٤٣١ ﻫ

٢٤- الثقافة الإسلامية: للأستاذ الدكتور إبراهيم الهدهد وآخرون، صـ ٧٩، ٨٠، ط: الأزهر الشريف، ط:٢، ١٤٤١ - ٢٠٢٠ م.

٢٥- جامع البيان في تأويل القرآن: لمحمد بن جرير الطبري ، ط: مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤٢٠ - ٢٠٠٠ م.

٢٦- الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، ط: دار الكتب المصرية – القاهرة، ط:٢، ١٣٨٤ ﻫ - ١٩٦٤م

٢٧- الحرورية الأولون وداعش المعاصرون: لموسى الغنامي، ط: مركز ثبات للبحوث والدراسات، بدون ت

٢٨- داعش من النجدي إلى البغدادي: لفؤاد إبراهيم، ط: مركز أوال للدراسات والتوثيق، بيروت، ط:١، ٢٠١٥م.

٢٩- دعوة المقاومة الإسلامية العالمية: لأبي مصعب السوري عمر عبد الحكيم، بدون

ط، شوال ١٤٢٥ ٢٠٠٤- مـ

٣٠- الدولة الإسلامية الجذور التوحش المستقبل: لعبد الباري عطوان، ط: دار الساقي – لبنان، ط:١، ٢٠١٥م.
٣١- الديمقراطية دين:لأبي محمد عاصم المقدسي، ط: الفجر الإسلامية، بدون ت.
٣٢- سنن ابن ماجه، ط: دار إحياء الكتب العربية – البابي الحلبي، بدون ت.
٣٣- سنن أبي داود، ط: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.
٣٤- سنن الترمذي، ط: البابي الحلبي – مصر، ط:٢، ١٣٩٥ ١٩٧٥- م
٣٥- السنن الكبرى: للبيهقي، ط: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط:٣، ١٤٢٤ – ٢٠٠٣م
٣٦- سير أعلام النبلاء: لشمس الدين الذهبي، ط: مؤسسة الرسالة، ط:٣، ١٤٠٥ – ١٩٨٥م
٣٧- السيرة النبوية: لابن هشام، ط: البابي الحلبي بمصر، ط:٢، ١٣٧٥ ١٩٥٥ – مـ
٣٨- شرح مشكل الآثار: للطحاوي، ط: مؤسسة الرسالة، ط:١، ١٤١٥ ١٤٩٤، مـ
٣٩- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: للفارابي، ط: دار العلم للملايين – بيروت، ط:٤، ١٤٠٧ ١٩٨٧ – م.
٤٠- صحيح ابن حبان، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط:١، ١٤٠٨ ١٩٨٨ – مـ.
٤١- صحيح الإمام البخاري، ط: دار طوق النجاة، ط:١، ١٤٢٢ هـ.
٤٢- صحيح مسلم، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون ت.
٤٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لأبي محمد محمود بن أحمد العينى، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، بدون ت
٤٤- الغرب والنفق المظلم، من إصدارات مؤسسة السحاب للإنتاج الإعلامي، ١٤٣١ – ٢٠١٠م.
٤٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ط: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩
٤٦- القاموس المحيط: للفيروزآبادى، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط:٨، ١٤٢٦ – ٢٠٠٥ م.
٤٧- لسان العرب: لابن منظور، ط: دار صادر – بيروت، ط:٣، ١٤١٤

٤٨- لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني، ط: دار البشائر الإسلامية، ط:١، ٢٠٠٢م

٤٩- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع: للإمام أبي الحسن الأشعري، ط: مصر، ١٩٥٥م.

٥٠- المبسوط: للسرخسي، ط: دار المعرفة – بيروت، ١٤١٤ ١٩٩٣-هـم.

٥١- مجموع رسائل وتوجيهات أسامة بن لادن، من إصدارات نخبة الإعلام الجهادي، قسم التوثيق، ١٤٣٦ ٢٠١٥ – هـم.

٥٢- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصفهاني، ط: دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت، ط:١، ١٤٢٠ هـ

٥٣- المحكم والمحيط الأعظم: لابن سيده، ط: دار الكتب العلمية–بيروت، ط:١، ١٤٢١ ٢٠٠٠ – هـم.

٥٤- المخطط الصهيوني حتى عام٢٠٠٠ميلادية: للمقدم كامل الشرقاوي، ط: الناشر العربي، بدون ت.

٥٥- مسائل من فقه الجهاد: لأبي عبد الله المهاجر، ط: مكتبة الهمة، ط:٢، ١٤٣٦ هـ

٥٦- المستدرك على الصحيحين، ط: دار الكتب العلمية – بيروت، ط:١، ١٤١١ – هـ ١٩٩٠م

٥٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط: الرسالة، ط:١، ١٤٢١ ٢٠٠١ – هـم

٥٨- مسند البزار، ط: مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة، ط:١، ١٩٨٨م

٥٩- معاني القرآن وإعرابه: للزجاج، ط: عالم الكتب – بيروت، ط:١، ١٤٠٨ – هـ ١٩٨٨ م

٦٠- المعجم الأوسط: للطبراني، ط: دار الحرمين – القاهرة، بدون ت

٦١- معجم العين: للفراهيدي، ط: دار ومكتبة الهلال، بدون ت.

٦٢- معجم شيوخ الطبري: لأكرم بن محمد زيادة الفالوجي، ط: الدار الأثرية، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ ٢٠٠٥ – هـم

٦٣- معجم مقاييس اللغة: للرازي، ط: دار الفكر، ١٣٩٩ ١٩٧٩ – هـم.

٦٤- المغازي: للواقدي، ط: دار الأعلمي – بيروت، ط:٣، ١٤٠٩-١٩٨٩

٦٥- المغني: لابن قدامة، ط: مكتبة القاهرة ١٣٨٨ ١٩٦٨ – هـم

٦٦- مفاهيم يجب أن تصحح: للأستاذ الدكتور عبد الله مبروك النجار، وآخرون، ط:

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤٣٦ ٢٠١٥ – م.

٦٧- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: للقرطبي، ط: دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط:١، ١٤١٧ ١٩٩٦ – م

٦٨- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن الأشعري، ط: دار فرانز شتايز، ألمانيا ط:٣، ١٤٠٠ ١٩٨٠ – م

٦٩- الملل والنحل: للشهرستاني، ط: مؤسسة الحلبي، بدون ت.

٧٠- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: للإمام النووي، ط: دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط:٢، ١٣٩٢ ﮪ

٧١- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط: دار الندوة العالمية، ط:٤، ١٤٢٠ﮪ

٧٢- الوافي بالوفيات: لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، ط: دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠ ٢٠٠٠ –م

٧٣- وفيات الأعيان وأنباء الزمان: لابن خلكان، ط: دار صادر – بيروت، ١٩٠٠م

الفهرس العام للموضوعات

Contents